

شيرين هنـائي

لاشين

الكتاب الثالث عشر - الضفدع

مكتبة بيت الحصريات

مقدمة

أنا.. لاشين.

لا شك أنها الحقيقة الأهم التي يجب عليك استيعابها، إلى جانب كوني الأول، والأخير ولتحمد الله على هذا. فالعالم لن يتحمل معرفة حقيقة ما مررت أنا به، ولا ما تسببت فيه، ولا ما أصبحت عليه.

أي لاشين آخر لا يُعوّل عليه، سواء كان من عائلة الدجّال الأشهر في طنطا: الشيخ لاشين، أو كان من خارجها. أي لاشين آخر عليه أن يتوارى حتى تنتهي الأزمة التي تسببت فيها عمدًا وبلا قصد.

هل يستأهل الأمر أن أحكي؟ لم أدرك ضرورة ذلك إلا مُتأخرًا، وكأن لا زال بداخلي ما يشفق على البشر ومصيرهم لو ظلوا على جهلهم. وأحيانًا ما أرى أن الجهل نعمة، فلو أن رصاصة خرجت من مسدس لتصيبك بعد كسر من الثانية، فبماذا ستستفيد لو عرفت أنها انطلقت؟ لا وقت للفرار، ولا لصلاة أخيرة.

لكنني سأحكي.. كفعل بشري أخير ولأنني وعدت سهير زاهر سأحكي.

***

شخصيات السلسلة

لاشين: مهندس كهرباء ساحر يلتم الشياطين ويكتسب قوتها.. وشرها.

سهين: مصورة فوتوغرافية لديها قدرة باراسيكولوجية اسمها "ثوتوجرافي"، إذ تستطيع تصوير الأشباح والشياطين بأي وسيلة متاحة. وهي حبيبتي بالطبع التي لن أتركها لزوجها السمين الكئيب.

أسامة: زوجها السمين الكئيب، مدرس في كلية آداب طنطا قسم علم النفس. لا أنكر أنه يحب سهير للغاية، لكنه كما ذكرت سمين وكئيب ورخو.

شريف: ابن سهير وأسامة، زوهري مثل جده، يستطيع التواصل مع الجن بسهولة لطبيعته الزوهرية، متمرد، جميل الخلقة كأمه.

رانيا: ابنة سهير وأسامة الكبرى، ووالدة عُمر الذي ورطنا جميعًا مع شيطان الرعب. لا شخصية لها، طويلة كأبيها، مُحبة للنكد مثله.

مهدي أبركان: ابن ديهيا الأسود، ليس من نسلها، إنما هو زوهري مغربي، قاتل سحرة متسلسل، ليس شريرًا ولا طيبا، لذلك هو مهم لأسباب تطول شرحها.

مهاب: مذيع صار مشهورًا نوعًا بعد برنامج بعد منتصف الليل، تورطت عائلته من قبل ما شيطان الرعب وفقد أخيه الأصغر عمرو بسببه، جده عمارة قابيل كان عالم روحانيات تسبب في فتح أول بوابة لعبور الشياطين واكتشف طريقة للتحاول معهم عبر

مايكروفون عتيق.

حسن: المراهق، صديق عمرو شقيق مهاب، والآن صار في مكانه عمرو وجزء من عائلة سهير الممتدة. أنا أحبه بشكل شخصي وأتمنى لو كان ابني.

والآن، أتمنى أن تقرأوا السلسلة بدلًا عن هذا الملخص الأبله. هل ارتحتم الآن؟!

***

الفصل الأول

-١-

الإسكندرية - أكتوبر ٢٠٢٣

يجلس أسامة الصاوي إلى منضدة جوار الواجهة الزجاجية لمطعم «المثلث الطائر»، المختص في صنع كل أنواع «الكريب» عدا النوع الطبيعي الذي أراده الفرنسيون لهذه الأكلة. ينظر أسامة إلى السور العالي الذي يحجب عن الجميع منظر البحر، ثم ينتقل تركيز بصره لا إراديًا إلى انعكاس وجهه على الزجاج.

خمسة أشهر مرّت على رحيل حفيده عمر وطلاقه من حبيبة عمره؛ سهير. أذابت الأيام الطوال دهون وجهه وجسده، ففقد نحو عشرين كيلوجرامًا، وتهدّل الجلد أسفل ذقنه، وغارت عيناه في محجريهما، فبدا أكبر من عمره بعشرة أعوام.

تتوقف سيارة تويوتا في عمر ابنه شريف أمام المطعم، ويترجّل منها الرجل القصير النحيل ذو العينين الواسعتين الخضراوين والسنين الأماميين الضخمين كالأرانب. الهواء يدفع جلبابه الفلاحي البني المكوي بعناية، فتكشف عن سرواله التحتي الطويل (الكلسون) وقدميه الكبيرتين في حذاء جلدي فاخر لامع.

يتهلل وجه الحاج مدحت –عم سهير- عندما يلمح أسامة، فيرفع يده ملوّحًا وينطلق كعصفور إلى المطعم المكيف يعانقه وهو ينظر إلى وجهه في قلق. يجلس جواره ويربّت على فخذه وهو يقول:

- أسامة حبيبي، والله زمان. «لك شوقة». لماذا لم تزرني يا بُني طوال هذه الفترة؟ تعرف أنني لا أستطيع ترك الحاجة مريم وحدها كثيرًا. لولا أن «البت» زوجة مرسي أبو الخير أتت بأولادها لترافقها اليوم ما استطعت القدوم.

- مشاغل يا حاج. مشاغل.

- أين «الواد» محمد إذًا؟

- أيهما؟ طليق ابنتي أم ابن عمي؟

- طليق ابنتك بالطبع، ألم نأتِ لمقابلته في مطعمه؟ هذه قلة «رباية» أن يتركك هكذا.

- لا تظلمه. ثمة مشكلة في طلبية جُبن وقد طلبوه لمراجعة الأمر.

ما أن أنهى أسامة كلماته، حتى ظهر محمد من عمق المطعم الخالي يجفف عرقه، يطل وجهه ذو الشارب من فتحة بول أوفر طويل العنق رغم الحر الذي يجثم على الناس في أكتوبر.

- آسف يا عمي.. أهلًا يا حاج مدحت. مرحبًا.

يجلس متجهم الوجه، يفرك كفيه في بعضهما. يقول الحاج مدحت ليقطع الطريق الممتد بينهما:

- لقد طلبنا مقابلتك يا بُني بشأن رغبتك في مقاضاتنا، واتهامنا أننا السبب في موت حفيدنا، من لحمنا ودمنا.

يقول محمد وهو ينظر إلى كفيه:

- لا ذنب لك أو لعمي أسامة في الأمر مأقاضي مدام سهير ولاشين هذا وبالطبع راليا التي لم تحرك ساكنًا وهي ترى الاثنين يقتلان ابني بالدجل والشعوذة.

يخرج أسامة من حقيبته الصغيرة ملفًا محشوًا بالأوراق ويدفعه نحو محمد وهو يقول:

- هذه صور ومستندات تثبت زيارتنا لأكثر من خمسة عشر طبيب أمراض مخ وأعصاب وطب نفسي في أنحاء مصر وتواصلنا مع طبيبين في الولايات المتحدة عبر الإنترنت. في الملف نسخ التقارير الطبية لكل الإجراءات التي اتخذناها لفهم طبيعة مرضه، وهذا..

هذا تقرير الـ..

لا يستطيع أسامة استكمال عبارته، فيقول مدحت:

- تقرير الطب الشرعي الذي أثبت وفاة الولد داخل جهاز رنين مغناطيسي، لا في مولد ولا محاط بالدجالين. الولد أصيب بغيبوبة مجهولة السبب مثله كمثل كل من كان في المخيم يومها(1) وكان بالصدفة الطفل الوحيد هناك ولم ينج. هذا الملف كفيل بأن تخسر القضية يا بني. لا يوجد دليل على أن عمل سهير واهتماماتها له دخل في قتله.

- لكنها.. لكنها تروّج للخرافات!

يهتف أسامة في حنق:

- وما مشكلتك أنت في هذا؟! لتعمل راقصة في ملهى ليلي إن أرادت، ما دخلك أنت طالما لم تقتل حفيدها؟!

- بل قتلته! لدي تسجيلات من البرنامج تؤكد أنها تظنه ممسوسًا من شيطان ما، ولدي تسجيل لحلقة نُقِل الولد فيها بشكل «عفاريتي» من مكان لمكان، وتعرُّضه للخطر أكثر من مرة، و..

يقول مدحت بأسف:

- ومن قال أن المادة التي تُعرض في البرنامج حقيقية؟ مغامرات مع شياطين؟ هل تصدق هذا يا محمد يا بني؟ كل هذا جزء من العرض الدرامي. أتعرف؟ ربما كانت كل المكالمات والمغامرات مُلفّقة من الأساس. توجد سلسلة كتب كتبتها روائية عن مغامرات لاشين. هذا خير دليل على أن الأمر كله قصص وحكايات.

يسند مدحت وجهه إلى قبضته فتلمع ساعته السيتزِن في وجه محمد. الحاج مدحت ليس رجلًا مهلًا رغم مظهره الذي يشبه شخصية الكسلان في فيلم الرسوم المتحركة «العصر الجليدي». يعقد محمد حاجبيه وهو يهضم ما قيل. ماذا سيكسب من إثبات أن سهير نصابة، تتلاعب بمتابعي برنامجها لا أكثر؟! هل نتج عن ذلك ضرر؟ البرنامج يذاع في الأساس على منصة خاصة، ولا شأن لأحد بها ولا يمكن منعه، خاصة أنه يذاع ضمن مواد درامية ولم يزعم أحد أنه حقيقي.

- سأجعلها تدفع الثمن.. حتى لو لم يصل الأمر للمحاكم! سأفضحها هي وعشيقها!

لم يدرك مدحت ما حدث وقت حدوثه؛ في لحظة كان أسامة جالسًا جواره، وفي لحظة تالية يراه يضرب رأس محمد في الواجهة الزجاجية.

- أيها الحقير المخنث! هذه زوجتي الشريفة التي تتحدث عنها! لن تخرج من هنا حيًا.

تشبّث مدحت في ظهر أسامة وهو يبسمل ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. تجمّع العاملون في المطعم وتحمّس واحد منهم فاندفع حاملًا سكين الشاورما الطويل محاولًا إنقاذ مديره.

أخيرًا –وبعد لطمة صفّرت لها أذن محمد- ينهار أسامة جالسًا، ويمسك الرّجال بمحمد كي لا يرد الهجمة. يهتف مدحت:

- صلوا على رسول الله! أنت المخطئ يا محمد! كله إلا الأعراض! لو أن الرجال هنا ذوي مروءة لطلبت منهم أن يشهدوا على سبّك ابنة أخي في شرفها.

يهز الرجال رؤوسهم في استنكار إذ صدّقوا فورًا على قال مدحت، وتتعالى همهمات مفادها أن الرجال لا يسبون شرف النساء هكذا حتى لو معهم دليل. ينفض المُتحلقون قبل أن يتورطوا في شهادة قد تقطع عيشهم. يقول مدحت أخيرًا وهو يحمل مفاتيح سيارته وهاتفه المحمول، ويمسك بكوع أسامة لينهض:

- أنت أغلقت باب الكلام بالحسنى. لن أهددك كما فعلت، لكن أقسم بالله العظيم أنني لن أترك حق ابنة أخي لو فتحت فمك هذا وقررت مقاضاتها أو التشهير بها. هيا يا أسامة.

***

في سيارة مدحت، يجلس الرجلان يشربان الشاي الذي أعدته مريم للحاج مدحت في «ترموس» حافظ للحرارة، ويفتح الأخير علبة بلاستيكية فيها شطائر.

- مريم تخشى أن أشرب أو آكل شيئًا خارج المنزل فأصاب بالمرض. بسم الله يا بني.

- ألف شكر. الشاي يكفي.

- لا تشغل بالك بهذا الـ«عيل» ذي الشارب. التفت إلى نفسك وصحتك وعائلتك. ما أخبار شريف؟

- لا زال مقيمًا عند صديقه ولا يُجيب مكالماتي. رانيا هي من تُطمئنني عليه وعلى سهير.

- لقد انتهت شهور العدّة وأنا أتوق إلى عقد قرانكما مرة أخرى حتى أتفادى حُسن نية أخي زاهر رحمه الله، وأكتب عليك مؤخّر صداق ضخم كي لا ينتصر عليك شيطانك مرة أخرى.

يضحك الحاج مدحت ويشرع في التهام شطيرة الكفتة، ويظل أسامة واجمًا ينظر إلى السور الذي يمنعه عن رؤية البحر.

بعد دقائق يستأذن أسامة في العودة إلى سيارته؛ الطريق إلى دسوق طويل وهو يفضّل العودة قبل حلول الظلام.. هذا ما لم يكن قد حل بالفعل منذ خمسة أشهر.

***

دسوق- أكتوبر ٢٠٢٣

يصعد محمد الصاوي الدّرج الإسمنتي الضيق خلف أسامة إلى الطابق الثالث حيث يقيم الأخير منذ خمسة أشهر في بيت عائلة عمه الأكبر.

- ولد قليل الأدب يا أسامة. ليتني كنت معك لأؤدبه. اعذرني، فالمنجّد سيأتي غدًا لصنع حشيات ووسائد وألحِفة العروسين، ويجب أن نجهز له مكانًا أمام العمارة كي لا يتسخ القطن.

يهزّ أسامة رأسه وهو يخرج مفتاح الشقة الصغيرة من جيبه. زفاف ابن شقيق محمد الصاوي –وبالتالي ابن جمال ابن عم أسامة- الأسبوع القادم، وسوف يسكن في منزل العائلة هذا، في الطابق الرابع من البناية القديمة غريبة البناء والتصميم. البناية مملوكة لأبناء عم أسامة؛ محمد وجمال وعزت وأمينة، وقد كانت في البدء دارًا من طابق واحد، وزادت طوابقها مع زواج الأبناء والأحفاد، لكن كل من السكان قد بنى شقته بشكل مختلف وعلى مساحات مختلفة.

لقد عادت لي –أنا لاشين- قدرتي على معرفة ما يحدث للآخرين

بعد مواجهتي الأخيرة لـ«الكُتبا» في الأردن واغتسالي بدمائها الشيطانية، لذا قررت أن أتابع أسامة بدلًا عن متابعة مهين خاصة وأنني أشعر أن هناك شيئًا ما يدور في هذا البيت الفريد مشوّه التصميم.

يدخل أسامة الشقة الصغيرة المؤلّفة من ممر طويل للغاية أمام الباب –ناتج عن تشوّه التصميم الداخلي العشوائي- ثم صالة مستطيلة لا تطل على شيء، تنتهي بحجرة داخلها حمام متر في مترين، ومطبخ مجتزأ من مساحة الصالة. لم يكن في الأخيرة شيء سوى مقعدين من صالون استغنى عنه أحدهم، ومنضدة قابلة للطي ومقعد بلاستيكي، أما حجرة النوم فتحوي فراشًا معدنيًا وخزانة من الصاج ذات مفتاح، تبرّع أبناء عم أسامة بقطع الأثاث هذه دعمًا له في مِحنته التي تمنى الجميع -لسبب أو لآخر- أن تكون مؤقتة.

يجلس أسامة على أحد المقعدين في الصالة، بينما يقف ابن عمه يرتجل:

- المهم، سأرسل لك زينة بصحفة الغداء. لقد صنعت أم العريس فتّة باللحم.

يرحل محمد ويظل أسامة جالسًا ينظر إلى هاتفه المحمول ورقم مهين.

- آلو.. مهين كيف حالك؟

ويشرع في حكي ما حدث في الإسكندرية، متحاشيًا ذكر سبب

الشجار الأخير ثم يضيف:

- ربما نتقابل عند الحاج مدحت الجمعة القادمة؟ لدي محاضرات مبكرة يوم الخميس، سأنتهي منها ثم أذهب إليه مباشرة. لقد حدثني الرجل عن عرض لن أرفضه، وأتمنى ألا ترفضيه. مهرك غالٍ يا سهير وأنتِ تستحقينه.

لم تُجب سهير.

- سهير؟ هيرو؟ أين أنتِ؟

يحدق أسامة إلى الهاتف في يده، ويدرك مع الطرقات على الباب أنه لم يتصل بسهير من الأساس. صوت الطفلة زينة على الباب يعلو كلما اقترب هو.

- هش! هش! عمو أسامة افتح بسرعة القطط ستأكل الطعام!

يفتح أسامة ويتناول من الطفلة ذات الضفيرة الشعثاء الصحفة. هو في مقام عمّها لكن لا مزاج له الآن لمداعبتها أو الضحك على قفزاتها على الدرج لتحاشي القطط أثناء نزولها.

- احترس كي لا يدخلوا الشقة يا عمو.

نظر القطان السياميان إلى أسامة والصحفة في يده. أسامة يكره القطط عمومًا، ومشموش استثناء لأجل سهير فقط.. ولأجل عمر أغلق الباب سريعًا وهو يتعجّب من وجود قطين سياميين على الدرج، لا قطط بلدية كالشائعة في كل مكان في مصر.

***

لأوضّح لكم –أنا لاشين- قبل الخوض فيما سيحدث جغرافيا المكان وشجرة هذا الفرع من عائلة الصاوي.

البناية تقع في شارع حديث نوعًا، لكنها قديمة، إذ كان هذا الشارع أرضًا زراعية في الماضي، ثم أصبحت سكنية، لذا البناية محاطة عن اليمين واليسار بقطعتي أرض، واحدة تحوّلت إلى متجر لبيع العربة الهجينة المنتشرة كالوباء في الأرياف؛ «التروسيكل»، وهي دراجة بخارية ممسوخة تجر خلفها صندوقًا يركبه الناس والمواشي الصغيرة والبضائع عِوضًا عن المسخ الآخر المُسمى «توكتوك»، هذا لأن الأولى مساحتها أكبر تتيح لراكبيها نقل بضائع أو مشتروات أو حيوانات أكثر. قطعة الأرض الثانية تقع خلف البناية، مساحتها فدان، يزرعونها أرزًا مغموزًا بالماء، يحيل المكان إلى مستعمرة بعوض، ويضرب الماء المخزن تحت الأرض حوائط المبنى بالرطوبة، فتعجب كيف لا ينهار كقطعة بسكوت مغمورة في شاي ساخن. في أكتوبر –الآن- تُزرع الأرض بالقمح الذي لا يزال قصيرًا، يقوم بمراعاة شئونه عامل زراعي غير مقيم. قرب المنزل حجرة مبنية بالطوب الأبيض تُعامَل معاملة المخزن، خلفها امتداد غير شرعي للمنزل؛ بيت من حجرة وصالة مجاور لمعرض التروسيكلات المبني من ألواح الصاج.

إذًا، فلو أنك نظرت إلى البناية من أعلى لأدركت أنها تقع عند التقاء

طرفي قطعتي الأرض.

في الطابق الأرضي شقتان مفتوحتان على بعضهما، هي شقة والد العريس جمال الصاوي. في الطابق الأول المرتفع شقة واحدة بمساحة الشقتين، كانت مملوكة للمرحوم عزت الصاوي، ومن بعده زوجته الثانية وأبنائه، وفي الطابق الثاني شقة واحدة مبنية على نصف المساحة، أما النصف الآخر فمجرد حوائط من الطوب الأحمر والشقتان ملك أمينة الصاوي، تعيش في واحدة منهما.

الطابق الثالث ثلاث شقق صغيرة بناها محمد الصاوي، يعيش في واحدة منها وحده بعد زواج أبنائه ووفاة زوجته. حاول تأجير الشقتين الأخريين للحصول على دخل جانبي، لكنه فشل كون المكان «بيت عيلة» لا يُرحب بالأغراب، فوهب واحدة لأسامة بعد انفصاله عن مهين. أما الطابق الرابع والأخير فيه شقّة العريس علي الصاوي، ابن جمال القاطن في الطابق الأرضي، وهي مبنية على ثلاث أرباع المساحة، أما الربع الباقي قرر العريس أن يفرشه بالبُسط التي تشبه النجيل، ووضع فيه أرجوحة على خلفية من أطباق الاستقبال الموصولة بشقق البناية.

أعرف أن الوضع مُربِك بعض الشيء في البداية، لكنكم ستألفون الأمر.

***

يستيقظ أسامة من نوم العصر مشوشًا على صوت شجار اعتاد

عليه. لا بد أن منار زوجة جمال الصاوي تتشاجر مع سناء الزوجة الثانية للمرحوم عزت الصاوي، ولا بد أن الثانية قد علّقت غسيلًا يقطر ماءً على أبسطة الأولى كعادتهما كل يوم.

يرفع أسامة الغطاء عن غدائه المكون من برام أرز وملوخية. هم يعرفون أنه لا يحب الفتّة فطبخوا له أرزًا. لفت نظره فجوة في طرف الطاجن، دس فيها الملعقة ليجد أن ما تحت سطح طبقة الأرز العلوية مكانًا خاليًا. ضحك ضحكة مكتومة، لا بد أن زينة قد أخذت قطعة لحم من الطاجن. أكل ملعقتي أرز ومثلهما من الملوخية، ثم ترك كل شيء لأن الشجار قد تطوّر إلى صوت صراخ أطفال وسباب يتعالى من شقة أمينة ابنة عمه.

نزل الدرج مسرعًا ليرى أمينة الستينية تقف عند باب شقتها التي تفوح منها رائحة كئيبة هي مزيج من قلة التهوية وتراكم القمامة والرطوبة التي تنهش في الجدران.

- ادخلي يا أمينة.. لا تقلقي.

- بل سأقلق!

ثم بصوت خافت تضيف وهي تمسك برسغ أسامه وتميل نحوه:

- هل تعرف أن منار هددت سناء مرة بأن تسكب على وجهها ماء النار؟ لطالما كانت تغار منها لأنها متعلمة وأصبى منها.

- لن تصل الأمور إلى هذا الحد. من أين لها بماء النار يا أختي؟

يدخل أسامة ليوصل أمينة إلى مقعدها المفضل أمام التلفاز. رغم وجوده في هذا المنزل منذ خمسة أشهر لم يُطل الجلوس مع أي من سكانه، ورغم وحدة أمينة وقِلة عناية إخوتها بها -فيما خلا محمد- لم يستطع تحمُّل ثرثرتها. منذ كانت مراهقة ثم شابة، وهي تثير المشاكل بين نساء العائلة وأحيانًا بين رجالها. أمينة فائقة الجمال، وفي شبابها كانت مزيجًا بين أجمل ما في ملامح سوسن بدر وزبيدة ثروت. سمرة بشرة لامعة مع عينين رماديتين واسعتين وشعر منسدل داكن. تستطيع أن تتنقل بين شخصيتي الممثلتين ببراعة أيضًا، فتارة هي أرنب مذعور بريء، وتارة هي قطة شرسة لعوب. لكل هذه المزايا يصدق عليها المثل القائل «من كثُر خُطّابها بارت»، فهذه الشخصية وهذا الشكل يدفع الجميع للشك فيها والغيرة منها وعليها، وكلما خُطبت فُسخت خطوبتها بعد أشهر قليلة.

سرعان ما التصق بها لقب «عانس»، وازدادت غيرتها من نساء العائلة وزوجات إخوتها وكل من تزوجت وهي لا تقارَن بجمالها. لهذا السبب لم يحبها أحد، ولم يعتنِ بها أحد في شيخوختها التي جاءت مبكرة نوعًا. يفكر أسامة في أن الجميلات يتوهّجن بسرعة وينطفئن بسرعة.. ربما سهير استثناء.

يمد يده إلى جيبه لا شعوريًا ليتصل بسهير ثم يُخرجها ويمسح عنها العرق في سرواله وهو يسأل أمينة:

- يقولون أن المنجِّد سيأتي غدًا إن شاء الله. أتوقع أن تحضري

هذه المناسبة ولو لساعة. بعض البهجة ستفيدك.

- أنت هنا لك عام وأكثر هل فاتتك البهجة؟

تضحك، فلا يكترث أسامة لتعليقها عن مدة إقامته. هو نفسه يشعر أنه هنا منذ وُلِد، وأن حياته الزوجية لم تكن سوى حلم طويل. يربِّت على كتف أمينة التي تشغل التلفاز وتشرد فيه، ثم يقصد الباب فيتوقف عندما تهتف به:

- لا تضرب القطط السيامي بالذات يا أسامة. هل أخبرتك بهذا من قبل؟

- لا يا أمينة. لن أضربهم. أنا لا أضرب القطط عمومًا.

- حسنًا. هما أبناء الغالية.

يهز أسامة رأسه ثم يخرج عائدًا إلى شقته وسط استمرار أصوات الشجار وقد زاد عليها صوت جمال العميق الآمر. سينتهي الأمر على الفور إذًا.

***

يستيقظ أسامة ليلًا على صوت غريب لا يستطيع تمييزه صوت شيء يتحرك.. ربما شيء خشبي.

لكل مكان أصواته الخاصة، وقد ألِف أصوات بيت العائلة هذا، لكن ما لن يألفه تلك الأصوات التي لا مصدر لها. سهير قد تعرف مصدرها بالتأكيد.

يمسك الهاتف وينظر إلى رقمها تحت اسم «هيرو» بالإنجليزية.

- سهين هل أيقظتك؟ معذرة.. أعاني صعوبة في النوم. هذه الأصوات غريبة عليّ. صوت همهمات، صوت جن صوت خطوات على سطح أجوف.. ماذا قد تكون؟ أعرف أن لها تفسيرًا ولن يخرج عن كونها أصواتًا طبيعية تنتقل عبر الحوائط لشقتي، لكن لماذا لا أسمعها إلا ليلًا؟ ولماذا لا أسمع أي نوع آخر من الأصوات عبر جدران المنزل؟ سهير؟ نمتِ؟

ثم ينظر إلى الهاتف المضيء، ويدرك أنه مرة أخرى لم يتصل بسهين.

يضع الهاتف جانبًا ويقوم ليتوضأ فيقرأ ورده من القرآن، ثم ليرَ ماذا سيتكشّف عنه اليوم. الساعة لم تجاوز الثالثة، والليل طويل وممل.

في الحمام يسمع صوت القطط على الدرج تعوي بتلك الطريقة التي تشبه الحديث، ثم صوت شيء يسقط. لا يعطي الأمر اهتمامًا حتى ينهي وضوءه ويخرج إلى الصالة مبتل الوجه واليدين ليرى كتبه التي كانت على المنضدة الصغيرة في غير موضعها.

كان يقرأ قبل النوم رواية «مومو» لميشائيل إنده، قصة أطفال هي، لكن فيها فلسفة قوية لن يفهمها إلا الكبار. تلك الرواية الآن أسفل مرجعين مكتنزين، والقلم الجاف متدحرج أسفل المقعد.

أحدهم كان هنا، لكن من أين دخل ولا نافذة إلا في حجرة النوم؟

يهرع إلى باب الشقة ليجد المفتاح في ثقب القفل من الداخل. حتى لو أن مفتاح الشقة مع أحد ما كان ليستطيع الدخول.. ولأي غرض قد يدخل أي شخص؟!

يجلس أسامة على المقعد ويمسح وجهه وهو يستغفر الله، ويسمع صوت سهير تقول له: لا بد أنك نسيت ترتيب الكتب يا أسامة. الأيام متشابهة هنا، وربما تظن أن ما قرأته منذ يومين هو ما قرأته أمس، أليس كذلك؟

في هذه المواقف تكون سهير صوت العقل الذي يتبناه هو طوال حياتهما، وربما هو من وسوس له حتى أخرجه منها.

يلقي أسامة نظره على هاتفه المحمول بحُكم العادة، ليجد رسالة من مُختصّة العلاج الطبيعي التي عالجت قدمه بعد مغامرته مع نادي الصلعاوات، وهي أيضًا من قراء السلسلة قبل أن تكون معالجته. سمع أنهم يقولون عنها: «مؤسسة جيش أسامة الصاوي»، وأنها تدافع عنه عندما يسخر منه قراء السلسلة على فيسبوك.

- «دكتور أسامة، كيف حالك الآن؟ أتمنى أن تكون بخير. كيف حال قدمك؟ كنت أريد أن أسألك إن كنت ستظهر في برنامج بعد منتصف الليل الذي سيذاع آخر الشهر.»

أرسلت هذه الرسالة في العاشرة مساء، بعدما نام هو كالدجاج منذ الثامنة والنصف، ولم تكن هذه رسالة دكتورة مروة الأولى منذ علاجها له، لكنها مؤخرًا – بعد صدور العدد العاشر من كتابي

تحديدًا- صارت تطمئن عليه بشكل متكرر، ونمت بينهما صداقة متحفظة للغاية. كتب لها:

- «مرحبًا يا دكتورة، أنا بخير، وأتمنى أن تكوني بخير دائمًا. لن يُذاع البرنامج هذا العام للأسف، وربما يتوقف للأبد. لا نعرف بعد.»

ثم يجلس ليقرأ القرآن، وينام جالسًا حتى يستيقظ على صوت وصول المنجد، وخروج محمد الصاوي من الشقة المجاورة.

***

يجلس أسامة مع محمد وجمال ابني عمّه في مدخل المنزل الرّحب الرطب، الذي يضيئه من جهة بوابة تطل على الشارع الرئيسي، ومن الجهة الأخرى مخرج إلى الحقل الخلفي.

أصرّت منال زوجة جمال وأم العريس، أن يتم التنجيد في المدخل قرب الشارع الرئيسي، ليرى المارّة ما اشتروه لابنهم. لم يُعلّق جمال الذي ظل يبرم شاربه الضخم وهو جالس يراقب عملية التجهيز.

يُنزِل المنجد ومساعدة المراهق أدواته، ورغم أن أسامة قد زوج ابنته من قبل، لم يحضر طقوس التنجيد هذه؛ تزوجت رانيا وسافرت مع زوجها إلى الإمارات مباشرة، ولم يكن لها شقة في مصر.

يقول رفاعة المنجد لمساعده:

- حطّ الكِرداشة قصاد المَقطف هنا.

ويشير إلى المدخل حيث الرجال الثلاث. يهمس محمد لأسامة:

- مَقطف؟ هل يقصد أحدنا؟

-لا أعرف. لكن لماذا قد يشتمنا؟

فهموا أن المقطف هو المنزل، وأن الكرداشة هي ماكينة ندف القطن، ولأن رفاعة منجد ممتاز، افترش الأرض جوار القطن وبدأ يعاين الأقمشة الموضوعة على منضدة كبيرة. يمسك قطع القماش اللامع بين كفيه ويفركها ثم يقول للرجال:

- هذه بطيسطا لا ستان.

قال جمال:

- بطيسطة؟

- نوع رخيص يشبه الستان. لن يتحمّل الروميّات ووجه اللحاف.

ينظر الرجال إلى بعضهم، وقبل أن ينطق جمال مستفسرًا عن كنه الروميات، تنطلق زوجته منار الواقفة عند باب شقتها هاتفة:

- السنيورة استرخصت، اشترت بمالنا أرخص الأقمشة بما يليق بمقامها وستفضحنا.

يخرج من خلفها علي –العريس- ويسأل المنجد:

- هل أنت واثق أن هذا ليس ستانًا بل بطيسطة؟

- مليون الميّة.

تصيح منان:

- هل رأيت ما فعلت عروسك؟! ماذا سنفعل الآن؟! إن غشّتنا في قماش التنجيد، من يعلم فيمَ ستغشنا لاحقًا؟

رفع المنجد قماش البطيسطة أمام أعينهم ثم قال:

- ليس سيئًا، ربما أستطيع أن أنقش لكم عليه نقشة الطاووس أو البقلاوة بالخيط، وسيصير اللحاف ممتاز. اللون البصلي يحب نقشة الطاووس.

قبل أن تتكلم منار مرة أخرى، يقول جمال بصوته الأجش من أثر تدخين الشيشة:

- ادخلي وجهزي الإفطار للرجل ومن معه. بطيسطة أو ستان أو عفريت أزرق، لن يترك أولادهم في المستقبل شيئًا على حاله.

وجمال ممن تأثروا في طفولتهم بنموذج الأب الضخم ذي الشارب، الذي لا يكف عن العبوس وتكييل السباب والأوامر ويعتبر إظهار الفرح أو المحبة من شيم النساء فقط.

افترش رفاعة الأرض، فثنى ساقًا تحته ومد الأخرى كاشفًا عن ساق سمراء رفيعة، وبدأ ما قال أنه عملية «الفز والضرب» كي يُنقي القطن من الشوائب والخيوط قبل أن يندفه في الكرداشة، ثم وقت العصاري الرّطب سيخيط القماش كي لا يتبقّع بالعرق.

بعد الإفطار، يرى أمامة ابني جمال يحملان بعض الحشيات والألحفة القديمة ويضعونها جوار رفاعة. يقول جمال وهو بعد جالس في مكانه منذ ساعتين:

- نجّد هذا يا أسطى بعدما تُنهي تنجيد فرش العروسين.

فيعاين رفاعة الحشيات والألحفة والوسائد ثم يقول:

- سأنجد القديم أولًا. للجديد زهوة، فلنجعله غدًا باكر بإذن الله.

يذهب الرجال الثلاثة لصلاة الظهر في المسجد القريب، لا لتقوى منهم، بل لرغبة في ترك جو البيت الذي صار مسممًا منذ نزلت أمينة برفقة سناء وابنيها التوأمين زين زينة. أرادت سناء أن تُنجد بعض الوسائد لبيتها، لكن منار اشتبكت معها، ومالت أمينة إلى سناء، ووقف العريس بين الجميع يفض المشكلة فبدا ككتكوت مبتل.

بعد عودة الكبار من الصلاة، وجدوا الوضع قد اشتعل وبعض الجيران تحلقوا حول المدخل في فضول. ينطلق محمد الصاوي يعدو تجاه البيت، يلحقه جمال بخطوات مسرعة وقور، ثم أمامة الذي صارت المشاكل والشجارات توتره أكثر مما ينبغي، وتدفعه دفعًا لتمني الاختفاء.

يدس محمد نفسه بين سناء الجالسة على الأرض، ومنار الممسكة بشعرها بعدما خلعت عنها طرحتها.

- كفاكما! ماذا حدث؟! وأنت يا علي، تترك زوجة عمك هكذا دون

سَتر؟!

علي يرتجف -حرفيًا- كطفل وسط شجار بين أمه وأبيه. يلاحظ أسامة هذا، فيضع كفه على كتف الشاب ويبعده عن الزحام وقد عرف أن جمال سيفعل ما سيفعل.

يرفع جمال كفه عاليًا ثم يهوي به على وجه زوجته، فتترك شعر سناء وتغطي وجهها. أمينة الشامتة تجلس على الدّرج، ويبدو عليها الاستمتاع إلى حد أنها لم تتدخل لحماية سناء.

يهدر صوت جمال:

- يمين بالله لو رأيتك خارج الشقة اليوم لتكوني..

يقاطعه محمد:

- لا تنطقها. أستغفر الله العظيم. هذه عين وأصابتنا. ما كان لك يا أختي أن تصممي على التنجيد أمام المدخل.

- ليست عينًا يا محمد. من نظنه موسى نكتشف أنه فرعون.

- ماذا تقصدين؟

قالت منار وهي ترفع لفافة من الكتان، وتترك ما فيها يسقط على الأرض:

- هذا يا جمال.. عمل داخل حشية فراشنا!

ينظر الجميع إلى الحبال المعقودة، وصورة زفاف جمال ومنار

والطلاسم المكتوبة عليها.

- وأنا التي أتساءل عن سر الكوابيس التي لا تنقطع عني. لا بد أنها هي هذه العقرباء.

تشير إلى سناء التي تكورت على نفسها وغطت رأسها بطرحتها.

يصفّق جمال بكفيه الضخمين ويهتف:

- ليذهب كل إلى حال سبيله. هيا!

فينصرف من تجمّع من الجيران، ويسحب أسامة كل من علي وزينة وزين إلى ما خلف المنزل ليبعدهم عن التوتر قبل أن يبتعد، يلمح رفاعة وصبيه يستأذنون للذهاب إلى مقهى قريب، فلا يأذن لهم أحد أو يلحظ انصرافهم.

على مقاعد بلاستيكية جوار الحقل، يجلس أسامة وعلي، ثم يأمر الطفلين باللعب بالقرب منهما. ينظر زين الصغير إلى أمه خلف قضبان البوابة الخلفية ويهمس لأخته:

- لو أبي كان موجودًا..

ثم يسكت ويتبع توأمته إلى حيث قطع من الخشب المهمل يلعبون بها.

- علي.. هل أنت بخير؟

يهز علي رأسه ويبتلع ريقه الجاف.

- أين علاء أخوك؟

- لا أعرف. دائمًا يهرب وقت المشاكل.

- إلى أين؟

- لا أعرف. ربما صعد إلى السطح ليدخن.

- أخوك يدخن وهو بعد في الصف الثاني الثانوي؟

- هو حر. كل منا حر فيما يفعل يا عمي. لن يكون أبي وأمي والدنيا علينا. تخيل يا عمي أن أقضي باقي عمري هنا.. في هذا البيت اللعين؟! بل وأحضر ابنة الناس لتعيش في هذه الغابة.

يرمش أسامة وينظر إلى كفيه وهو يسأله:

- لماذا لم تؤجر شقة في مكان آخر يا بني؟

- أبي يرفض أن يخرج أيّنا من هذا المنزل. بل هو يخطط لتزويج زين الطفل في هذا المكان. تخيّل؟ أبي يعيش في القرن الماضي ويؤمن بقيم بيت العيلة واقتناء الأراضي وما إلى ذلك. لو رفضت، كنت سأظل طوال حياتي بلا زواج.

يهز أسامة رأسه. لم يكن يتصور أن هذا التفكير موجود بعد. لو أن سهير هنا لأخبرته أن طريقة التفكير هذه لن تنقرض، وهي ليست مرتبطة بزمن، بل بغريزة قديمة تدفع البعض لتكوين قبيلة بأي ثمن.

هل هذا كلام سهير أم كلامه؟ لا يهم.

منذ متى وهو يستوعب وجود فارق بينهما.

- علي.. تعرف أنني بعيد قليلًا عن هذا الفرع من العائلة ربما أقابل محمد من وقت لآخر لكن علاقتي بأبيك ليست على ما يرام منذ زمن، ولا بجَدّك..

 يتذكر أسامة كيف هاجم جده انتقال أبيه من دسوق إلى طنطا، وكان غضبه عليه من أهم أسباب إصابته بالجلطة مبكرًا ثم الوفاة، ثم انتقلت لعنة الجد إلى ابنه جمال، وظل يضغط على شقيق أسامة الأكبر إسماعيل كي يعود إلى دسوق مع أخيه، فرضخ إسماعيل تحت الضغط، فعاد هو وترك أسامة يكمل دراسته في طنطا، خاصة وقد رأى شغف أسامة بسهير جارتهم، وبالتمثيل المسرحي. في النهاية توفي إسماعيل كأبيه في سن مبكرة، وأصبح أسامة أحد أعداء جمال كونه شرد عن القطيع.

والآن يضطر إلى العودة، لكنه قرر ألا يستمر في العيش في بيت العائلة أكثر من هذا. إما أن يعود إلى زوجته، وإما.. يبدو أن ليس لأسامة خطة بديلة.. ربما سوى الموت حسرة.

- أعرف يا عمي. أبي لا يُعاشَر. لا أخفي عليك أنه شامت فيك لأنك لم تجد ملجئًا إلا بيت العائلة.

يتعجب أسامة من تصريح علي، وكأنه طفل ينقل الأخبار والآراء دون وعي.

- أنا هنا لأن محمد عمك أصر على هذا. وضع مؤقت. المهم.. كان سؤالي هو، كيف تظن أن هذا الـ العَفَل قد وصل إلى حشية فراش والديك؟

- الحقيقة يا عمي، الوضع في المنزل غريب منذ زمن. لا أتذكر كيف بدأ كل شيء، لكني أتذكر أنني كنت في الخامسة عشرة تقريبًا، أي منذ أحد عشر عامًا، عندما لاحظت همسات أمي عن كون «طنط» سناء ساحرة، سحرت لعمي رحمه الله حتى تزوجها على زوجته الأولى وجاء بها لتعيش معهما.

- أتذكر أن زوجه عمك الأولى رحمها الله هي من زوّجته بعدما أيقنت أنها تُحتضر.

- هذا ما حدث، لكن أمي تصر على أن زوجته الجديدة ساحرة، بل وتقول أن..

يميل على أسامة أكثر وينظر نحو زين وزينة مردفًا:

- أن ابنيها.. لا أعرف.. ممسوسان..

يهز أسامة رأسه ببطء رافعًا حاجبيه. منار تلقّت تعليمًا متوسطًا، وقد انتقاها جمال بهذه المواصفات كي لا تتكبر عليه، وهي وجهة نظر يرى أسامة أنها تدل على خلل فيه، أما سناء فمعلمة رياض أطفال. يبدو أن المشكلة نبعت من فارق التعليم والسن. غيرة نساء أو شيء من هذا القبيل.

- وما علامة مسهما يا علي؟

- يقولون أنهما.. ينمسخان قطين.

أسطورة أخرى لا يصدق أسامة أن ثمة من يؤمن بها حتى اليوم، لكن الأجواء المُمرِضة هنا تؤدي قطعًا إلى كل هذه التشوهات من الإيمان بالخرافات، للتطين للتفكير السحري.

- وهل رأيتهما ينسمخان؟

- لدينا مجموعة قطط تعيش على الدّرج، ألا يتحولان إلى أيهم؟ المهم، يمكن أن يكون أحد الطفلين قد دس العمل في الحشية؛ هما يلعبان في البيت أحيانًا، وباب شقتنا لا يُغلق إلا ليلًا.

- هذا على اعتبار أننا تأكدنا من أن أمهما ساحرة.

يصل إليهما صوت محمد يهتف من خلف البوابة الحديدية:

وهو يسعل:

- سأريح ذراعي وصدري قليلًا وأبدأ في تفصيل الأقمشة. هل لي أن أقول شيئًا؟

- تريد شايًا؟ أم نحضر الغداء الآن؟

- لا.. سلمت.. أريد فقط أن أقول شيئًا عن موضوع العَمل داخل الحشية.

ينظر محمد إلى أسامة ثم إلى رفاعة مرة أخرى منتظرًا أن يقول

الرجل ما يريد. يتربع الأخير ويفرد قماش البفتة أمامه ويقول:

- لا مؤاخذة، لي أكثر من خمسة وعشرين عامًا في هذا الكان ورأيت ما هو أغرب من الأعمال داخل الحشيات والوسادات. في مرة وجدت حَنَشًا ميتًا. أي والله كما أقول لكما. وفي مرة وجدت رُزَم نقود. أغرب ما وجدت كان وليدًا ميتًا ملفوف في عدد من الأكياس.

يحدق الرجلان في وجهه استبشاعًا لما يقول، فيردف:

- الغرض مما أقول أن الحشيات أسرار. البعض يخبئون فيها مالًا ثم ينسونه أو يموتون دونه. والبعض يخبئ أسرارًا.. والبعض يخبئ نواياه السيئة في خراب البيوت. النوم أيضًا أسرار أي والله. يشكو بعض زبائني من نوم سيئ، ويطلبون مني أن أعيد تنجيد حشياتهم ظنًا أنهم فقط لا يرتاحون للتنجيدة القديمة، لكن القطن يحدثني.. أي والله.. يُسر إليّ بالكثير حتى ينظف وينصع بياضه، فينام عليه صاحبه كأنما ينام فوق السحاب.

يهز أسامة رأسه للمرة الألف اليوم؛ كل ما يقال غريب، لا ينفذ إلى عقله، ولا مزاج له للتفكير والتحليل. هو فقط يريد أن يتناول لقمة ثم يختفي من العالم.

من خلفهم يسمعون صوتَ زين الرفيع كأخته وهو يقول:

- عمو.. أنا أحلم أحلام سيئة كلما نمت في حجرة أمي، لهذا نقلتنا إلى حجرة ماما عطية الله يرحمها.

يتلفت له أسامة متعجبًا من وجوده الذي لم يشعروا به. أين كان وكيف ظل ساكتًا كل هذه الفترة؟ السلم أمامهم والبوابة إلى جوارهم، فهل كان مختبئًا طوال الوقت بين أجولة القطن؟

يقول رفاعة:

- لا تخف. ليست كل الحشيات غريبة. أنا أحكي نوادر. أمورًا تحدث مرة في المليون.

- لكن طنط منار قالت أن أمي ساحرة، وهي من وضعت في حشيتها العقل.

جذب محمد ذراع الولد برفق نحوه، ثم ضمه وهو يقول:

- ما هذا الكلام؟ أنت فهمت ما قيل بشكل خاطئ.

- لا. أنا فهمت كل شيء.

ينظر محمد إلى أسامة ثم يميل نحوه هامسًا:

- أحتاج إلى مساعدتك يا أبا رانيا.

***

يجلس محمد وأسامة على السطح، يتأرجح محمد جالسًا على الأرجوحة المغطاة بعد بالبلاستيك، بينما يقف أسامة وظهره إلى السور ممسكًا بكوب شاي.

- العائلة تحتاج إلى إنقاذ يا أسامة. لسنوات طويلة كنت وحدي

تمامًا، أحاول أن أوفق بين هذه وتلك، وأصالح هذا على ذاك، وأجبر خاطر الأطفال وأرجو الآباء أن يهدأوا قليلًا أمامهم. يا ربي.. منذ رحيل أم الأولاد وأنا في هذا الجحيم.

- أعتقد أنها مشاكل «سلايف» عادية يا محمد. أمينة أيضًا كانت سببًا في كل هذه الكراهية بين الإخوة وزوجاتهم. أهم شيء الأولاد من وجهة نظري. كنت أظن أن علي أكثرهم تأثرًا، وربما علاء.. لكن ما قاله زين لفت نظري إلى أن الأمر ممتد أكثر مما نتخيل. كل هذا التوتر والشك.. كل هذه التخاريف والخرافات.

- ماذا نفعل يا أسامة؟ أنت الدارس وتعرف كيف نتعامل مع هذه الأمور.

يصمت أسامة ويحدق إلى كوب الشاي شاردًا؛ هو الدارس المصاب بالاكتئاب والأرق، هو الدارس الذي فقد عائلته ويعجز عن فعل أي شيء.

- دعها لله يا محمد. لنرَ.

يلفت نظر أسامة حركة داخل شقة علي. أحدهم يتحرك خلف النافذة المفتوحة.

- هل علي هنا؟

- لا. عند خطيبته.

هرع أسامة إلى الشقة ينظر في أرجائها. الباب ليس مُرتجًا مثله

كمثل أبواب شقق العائلة ذات المفتاح في القفل من الخارج، ولا يُدخِلونه إلا وقت النوم.

سمع أسامة صوتًا يعرف أنه سمعه من قبل. صوت احتكاك.. جَر.. لا يستطيع تمييزه بدقة، لكنه يسمعه أغلب الليالي، ويذكّره بمصطلح قالته له سهير من قبل؛ البولترجايشت، أو الأشباح الصاخبة.. آه.. سهير مرة أخرى..

يسأل محمد:

- هل من متسلل؟

- أعتقد أنني رأيت من يتحرك بالداخل.

قبل أن يخرجا، سمعا أمينة تصرخ.

***

أغلب مصابيح شقة أمينة لا تعمل. حتى المطبخ لا إضاءة فيه سوى قابس متصل بمصباح صغير. هذا الإهمال يدمي قلب أسامة..

- سأركب لك مصابيح يا أمينة في الصباح.

- لا مصابيح! أكره الضوء!

يقول محمد:

- حاولت كثيرًا يا أسامة. هي لا تحب تغيير أي شيء في شقتها.

- أسمع يا أسامة وأنت يا محمد، ثمة ما يجري في هذا البيت

وكنت أخشى الحديث عنه حتى.. حتى وجدت منار العَفَل في الحشية. هذا البيت مسكون بروح أبينا.

يقشعر جسد محمد عند سماع سيرة أبيه القاسي. ظل يحلم لأعوام أنه لم يمت وقد عاد ليعيش معهم ويلومهم في كل دقيقة على دفنه حيًا. جمال نسخته، لكنه أخوه على أي حال وتحديه أو مخالفته أهون.

- ماذا رأيتِ يا أمينة؟

- رأيته يجوّل في الشقة ليلًا. رأيته، لكن جسده كان منكمشًا، يتحرك بخفة.. يخرج من الحائط ويعود إليه. أنظر إليه ويُشَل جسدي فلا أستطيع حتى أن أتكلم أو أتحرك.

يسأل محمد بصوت متهدج:

- منذ متى وأنت ترينه؟

- منذ سنوات.. في البداية كان ضخمًا كما كان، ثم بدأ يتقلّص وينحف.. كأنه.. يضمر.. هل تفهم؟

يسأل أسامة:

- وما هي علاقة الشبح بالعَفَل؟

- لا بد أنه قرينه، لا شبحه. ألا تعرف أن الأعمال تُرافق بوجود الجن؟ في البيت من سمح بدخول الجن إلى هنا.. لا بد أنها سناء..

- سناء هنا منذ عشر سنوات يا أختي، هل بدأ الشبح في الظهور

منذ وقتها؟

تشرد أمينة لحظات قبل أن تقول:

- هه؟ يجوز.. لكني رأيته منذ قليل وهذه أول مرة أراه وأنا مستيقظة بالكامل. حاولت اللحاق به، لكن الظلام حجبه عني حتى اختفى هنا.

وأشارت نحو نهاية ممر بين حجرتين.

مشى أسامة وخلفه محمد إلى هناك. فحص أسامة المكان.. لا شيء.. جدار غير نظيف، مبرقش ببصمات مختلفة. يتخيل أسامة ماضيًا أكثر سعادة هنا، عندما كان أبناء محمد وجمال أصغر يلعبون في بيت عمتهم. الاكتئاب يوطد علاقته بأسامة أسرع مما ظن.

- أقترح يا أمينة أن نركب مصابيح. لا داعي لكل هذا الظلام.

- لا! أبي كان يحب الظلام.. لن يرضى..

قالتها قاطعة. ينظر أسامة إلى محمد، ثم يخرجان ليقفا أمام الدرج.

- ما رأيك يا أسامة؟

- تهيؤات يا محمد.. أمينة ليست على ما يرام. ما الذي سيجعل شبح عمي يعود بعد سنوات من وفاته؟

- إذًا تؤمن بوجود أشباح!

- لا أعرف. الكثير من الغرائب تحدث في العالم، وأكون غبيًا لو

رفضت وجودها بعد كل ما رأيت منذ عرفت.. سهير..

- وما رأيك في العَمّل؟

- سناء جاءت بعد زواج منار بسنوات، أي أنها لم تدس العَمّل في الحشية وقت تنجيدها. ابناها صغيران ولا يمكنهما فعل ذلك ثم خياطة الحشية مرة أخرى. أما هي.. هل تدخل بيت جمال وتجوّل في الحجرات؟

- لا. منار لا تدخل بيت جمال من الأساس، ولم تدخله إلا مرتين أو ثلاثًا وقت كان أخي عزت حيًا.

- الأمر كما توقعت. منار هي من وضعت هذا العمل لنفسها، ثم أصرّت على تنجيد الحشية أمام الجميع حتى تتهم سناء في الأمر.

- وما الهدف؟

- قلت لك؛ مشاكل سلايف لا يمكن تبريرها أبدًا. هيا.. سأصعد أنا لأستريح قليلًا. لو احتجت شيئًا نادِني.

أخيرًا يتملص أسامة من مشاكل أقربائه الشائكة التي تذكره بما لا يريد تذكره، لكن لن يستمر هذا طويلًا..

***

كان رفاعة يجمع حاجياته لينصرف، على وعد بالعودة صباح اليوم التالي، حين سمع أسامة الذي كان يُطل من نافذة غرفة نومه صوت جمال القوي يصيح:

- إلى أين؟ هل جُننتِ؟

نظر أسامة إلى الساعة فوجدها التاسعة مساء. لن ينتهي هذا اليوم الكئيب، وغدًا الجمعة، أي يوم طويل آخر لا يعلم إلا الله ما يخبئه له.

- لو سمحت يا أبا علي، أنت لم تأخذ حقي من زوجتك ولو مرة واحدة، لكنها ضربتني! لأول مرة تضربني، بل وأمام الغرباء.. وتعري رأسي أيضًا!

صوت باب محمد يُغلق، ثم صوت خطواته الثقيلة تقترب من باب أسامة.

صوت الجرس تليه بعض الطرقات.

لو لم يفتح أسامة سيظن الرجل أنه مات.

- أهلًا يا محمد..

- تعالَ معي..

يجذبه محمد وهو بعد يرتدي تريننج منزلي وخفين، وينزلان معًا على الدَرج الضيق.

- يا محمد، أنا غريب مهما كانت درجة قرابتي.

- لهذا وجودك مهم. الغريب العالِم مسموع.

- لست غريبًا تمامًا، أنا قريبكم!

- القريب البعيد مسموع.

يصلان إلى المدخل، فيريان سناء تحمل حقيبة، وتجر خلفها ابنيها اللذين يبدو عليهما الإرهاق والنعاس. تخرج منار معصوبة الرأس من الباب وخلفها علاء وعلي.

- دعها تذهب إلى حيث تريد يا جمال. لننظّف العمارة من أمثالها.

- هل تعرفين كيف تضعي لسانك داخل فمك؟ وأنت يا سناء، اصعدي إلى شقتك، كفانا فضائح.

- هي التي بدأت الفضائح. لي أم أذهب إليها. ليس لك كلمة علي.

اتسعت عينا جمال في غضب، فوقف محمد بينهما وهتف:

- لا بأس يا جمال.. سأوصلها إلى أمها، يومين حتى تهدأ ثم أعيدها بنفسي.

- قلتُ لا!

تصيح سناء:

- لا على نفسك يا جمال وعلى أهل بيتك!

يرفع جمال كفه إلى أعلى، فيندفع أسامة يمسكها، ويقبض رفاعة لا إراديًا على كتفي الرجل وهو يصيح:

- وحدوا الله! إلا ضرب الحريم يا حاج!

يهدر جمال:

- إن كان أخي رحمه الله عجز عن تأديبها.

يقاطعه أسامة:

- تريد الحق يا جمال؟ ليس لك سلطة عليها. احترامك واحترام كلمتك غرف محمود حتى تعجز أنت عن التعامل مع المشكلة بعقل.

ينظر له جمال غير مصدق، فيردف أسامة سريعًا قبل أن تدور عليه الدائرة:

- لماذا لم تضع المرأتين أمام بعضهما بهدوء وتسمع من كلٍ منهما؟ كل ما تفعل هو الصراخ والضرب ومنع كل واحدة عن الأخرى وحبسها في شقتها. مُسكّن يغطي على المرض الذي ينخر علاقتكم جميعًا.

تقول سناء في غضب:

- هو لا يضع المُسكّن على مشكلتنا فقط يا دكتور. بيته من زجاج ولا يفعل شيئًا سوى حدفنا بالطوب.

يتملص جمال من بين يدي رفاعة العضليتين بصعوبة، ويفتح فمه ليقول شيئًا يحرق به كل من هم أمامه، لكن يسقط الطفلان أرضًا في الوقت نفسه.

يتلفت أسامة إليهما، وتنظر أمهما إليهما متسعة العينين في حرج لا في قلق.

يتساءل رفاعة:

- اسم الله عليهما. بصلة بسرعة!

يغمغم أسامة وهو راكع بينهما:

- فقدا الوعي في اللحظة نفسها؟

يميل عليه محمد وهو يحمل زين:

- صلة التوائم يا أخي.. احمل زينة.. هيا يا مناه يا أختي اصعدي إلى شقتك الآن وسنأتي وراءك..

يصعد أسامة خلف محمد حاملًا زينة، ويسمع منار تقول لزوجها من بين أسنانها:

- ألهذا لا نراهم أبدًا ليلًا؟ ألم أقل لك؟!

يفكر أسامة في القطين السياميين ويهمس لنفسه:

- ليتك هنا يا سهين

***

ينام الطفلان في فراشهما كملاكين.

الشقة في الطابق الأول المرتفع، تقع الشقة تحت شقة أمينة التي تحتل نصف الطابق الثاني الأيسر وتمتد إلى الجانب الأيمن من البناية، فيمكن القول أن الطابق الأول المرتفع بالكامل هو شقتي المرحوم عزت الصاوي. قبل وفاة زوجته الأولى، كان يعيش في الشقة اليمنى، وبعد زواجه فتح مسطح الطابق بالكامل على بعضه

كي لا تشعر زوجته الأولى عطية أنه هجرها، وعاش في سلام حتى توفيت عطية، ثم لحق بها بعد ست سنوات.

حجرة الطفلين شاسعة، تحوي فراشين ضخمين ينامان على واحد منهما، وبينهما مساحة لعب واسعة وخزانة تغطي إحدى الحوائط، وتلفازًا مُعلّقًا وأريكة كبيرة. يبدو أن الأم تعيش في هذه الحجرة مع ولديها لتترك باقي الشقة نظيفة.

كأنما سمعت ما جال بخاطر أسامة، فقالت وهي تجمع ألعاب الطفلين في صندوق:

- لا مؤاخذة. لا يزورني أحد إلا أمينة من وقت لآخر لذا نعيش هنا كي أوفر وقت التنظيف. لا بد أنكما تعرفان ما يفعله الأطفال بالبيوت.

يسأل أسامة وهو ينظر إلى وجه زين:

- أقترح أن ننقلهما المستشفى أو نبحث لهما عن طبيب.

- لا داعي. هذه عادتهما منذ سنوات طويلة.

- عادتهما؟ يفقدان الوعي معًا؟!

- كل يوم بعد العشاء. لا يفلح شيء في إيقاظهما.. جرب..

ينادي أسامة عليهما، ويضرب أكفهما برفق. لا شيء.

- هل عرضت الأمر على طبيب؟

تجيب سناء في ضيق:

- هما نائمان. ما دخل الطب؟ سأصنع الشاي..

- لا داعي..

يقول محمد كأنما انتهز الفرصة:

- لا تغضبي يا أختي من جمال وزوجته. هذا طبعهما.

- زاد الوضع عن الحد. بعد وفاة المرحوم عزت قُلت لنفسي لأمكث هنا وأربي الولدين وسط عائلتهما، لكن اتضح لي أن هذا ما يريد جمال. يريد أن يحبسنا هنا تحت عينيه، وهذا ليس عدلًا! زوجته الحرباء هذه تضايق أخواتي عندما يأتين لزيارتي حتى صرت وحيدة تمامًا، وممنوع عليّ زيارة أيمن أو زيارة أمي إلا في المناسبات. أنا أدرّس عبر الإنترنت ولا أخرج أبدًا. ما ذنب هذين الطفلين في أن يكون عالمهما سلمًا ضيقًا طويلًا لا أكثر؟ ثم..

تصمت سناء، فيسألها محمد:

- ماذا بكِ؟ احكي.

- لا شيء. لم أعد راغبة في البقاء في هذه الشقة بعد الآن. ليكن ما يكن. سأرحل وأعيش عند أمي.

يقول أسامة وهو بعد يحدق إلى الطفلين:

- ألا تخشين أن يكون بهما خطب ما؟

- هذه ليست المشكلة الآن.

- بل هي مشكلة كبرى.

- نحن نعيش في جحيم! أعرف أنني لو تركت هذا المنزل سيشفيان.

- إذًا هما مريضان!

- لن أتكلم في هذا الموضوع. سيتهمني الجميع بالخبال كما اتهموا أمينة من قبل. الرحيل هو الحل.

وقف أسامة واقترب منها وهو يقول:

- مدام سناء، احكي لنا. لن نتهمك بشيء. مَن اتهم أمينة بالخبال؟

- جمال وزوجته.. كانت قد زعمت أنها.. أنها ترى شبح أبيها في المنزل.

- وهل تصدقينها؟

بعد تردد قالت:

- أصدقها.. لكني جبنت حين اتهموها بالخبال. نظرت لي مستنجدة كي أخبرهما أنني أيضًا أرى شبحًا في شقتي، لذا انتقلت للعيش في شقة المرحومة عطية. لا أرى الشبح هنا.

سأل محمد في اهتمام:

- ولماذا لا أرى أنا أي أشباح؟

قال أسامة:

- يبدو أن جمال وزوجته لا يريان شيئًا أيضًا. قولي لي.. أين ترين هذا الشبح؟

- غالبًا في حجرة نومي.. وفي الصالة..

- هل رآه أحد الأولاد؟

- مرة واحدة رآه زين وأخبرته أنه رأى كابوسًا. هو يظهر ليلًا وهما نائمان.. وتعرف صعوبة إيقاظهما.

- وماذا يفعل الشبح تحديدًا؟

- يجوّل..

- هل حاولت مناداته مثلًا أو لفت نظره؟

- بالطبع لا! هذا شبح يا دكتور! لن أتحمل أن يدير وجهه تجاهي أو يكلمني.

يخطر لأسامة القطان مرة أخرى، ويشك في نفسه.. هل رأى القطين يوم صعدت له زينة بالطعام أم كان قطًا واحدًا؟ هل كان أخوها نائمًا؟

يحك صلعته ويزفر. ها هو يلتقط عدوى الخرافات سريعًا. قرأت له سهير يومًا من مسودة كتابها الثاني «أشباح الشوارع» الذي لم يُنشر بعد: «التفكير السحري والخرافات مريحان، لا يسببان حكّة المخ التي يسببها التفكير العقلاني، ولا يُشعرانك بالعجز الذي

يُشعرك به المنطق إذا يقيدك بالأسباب والنتائج. للخرافات ألف تفسير، وللحقيقة تفسير واحد مدفون في نهاية درب مظلم.»

الخرافات مُعدية، والمرأتان المسنونتان نقلتا عدوى الأشباح لبعضهما. الوحدة والحزن شبحهما.

وعد أسامة سناء أنه سيعود لزيارتها صباحًا مع محمد، وصعد إلى شقته ليجد أن الباب قد أُغلِق والمفتاح داخل الشقة. جلب له محمد المفتاح الاحتياطي. فتح أسامة الباب ودخل ليفاجأ برائحة غريبة. رائحة عطرية مع رائحة احتراق، لكنها ليست رائحة عِطره ولا رائحة أي من المنظفات في الحمام، ولا يوجد ما قد يكون مصدر رائحة الاحتراق هذه.

قال محمد:

- شممتها من قبل ولا أتذكر أين. لعلها دخلت من هنا أو هناك. أنت تعرف هذه البيوت. تصبح على خير..

يفكر أسامة في الكتب التي اختل ترتيبها.. في رائحة العطر.. في اللحم الذي اختفى من الأرز.. في القطين.. في العَمَل وفي كلام رفاعة.. ثم يتثاءب ويرتمي على الفراش كخرقة مبتلة حتى الصباح.

***

- آلو يا دكتور. اتصلت في وقت غير مناسب؟

سمع أسامة صوت مختصة العلاج الطبيعي مروة، فتنبّه ونظر إلى ساعة يده على المنضدة جوار الفراش.. لا.. وهو ليس على الفراش، بل على المقعد في الصالة.

متى استيقظ ومتى نام جالسًا؟

- أهلًا يا دكتورة. لا أبدًا. أنا مستيقظ.

- كنت أريد أن أطمئن عليك فقط. يسأل قراء سلسلة لاشين عنك على الفيسبوك، ويبدو أنك لا ترد على رسائل صفحتك. قلقنا عليك.

- أنا بخير. شكرًا لسؤالكم.

- أتفهم ما تمر به يا دكتور أسامة. قرأت آخر ما صدر من السلسلة.. هل قرأته؟

- لا للأسف. لا أريد أي علاقة بشيء مكتوب عليه اسم لاشين.

- حسنًا. خيرًا فعلت.. هذا أفضل لصحتك النفسية، ولا تنس أنك قد أصبت بأزمة قلبية من قبل، ولا نريد أن نرهق قلبك بالاكتئاب. ما رأيك أن نجتمع، نحن محبيك، في مكان في القاهرة أو نأتي نحن لك حيث أنت، ونتبادل الحديث عن علم النفس أو المسرح أو أي شيء تحبه؟

- أعتقد أن جدولي في الجامعة مزدحم بعض الشيء، بالإضافة إلى أنني أقيم خارج طنطا الآن وأمضي وقتًا طويلًا على الطريق بين الجامعة ومسكني. ربما في عطلة نصف العام الدراسي..

- سأعتبر هذا وعدًا يا دكتور. حافظ على نفسك من أجلنا.

أنهى أسامة المكالمة وقد تذكّر أنه استيقظ في الثانية مساء عطشًا جائعًا، وبحث عن الخبز والجبن فلم يجد الأول، وكان واثقًا من أنه قد ترك رغيفين أو أكثر على المنضدة. التهم شرائح الجبن الرومي مع كوب شاي، واتصل برانيا التي بدت مشغولة أو غاضبة أو غير مكترثة، ثم اتصل بشريف على سبيل العادة ليجد هاتفه مغلقًا كما كان منذ ثلاثة أشهر أو أكثر.

يجب أن يبحث عن هذا الولد. هو ليس فردة جورب فُقِدت في الغسالة واستعوض الله فيها. قرر أن يذهب إلى طنطا في الصباح ويبدو أنه غفا حتى استيقظ على صوت الهاتف. قبل أن ينسى، يتصل بطبيبة المخ والأعصاب، صديقة سهير ومعالجة مهاب، ليسألها عن..

- دكتورة ماريا، لدي سؤال سريع بعد إذنك. هل من مرض يجعل طفلين ينامان فجأة معًا ولا يستيقظان أبدًا إلا صباحًا ومن تلقاء نفسيهما؟

تجيبه ماريا بعد تفكير لحظات:

- أعتقد أن نومهما ثقيل. هل هما أخان؟

- توأمان.

- إذًا هو النوم الثقيل. يتأثر الأخوة بتوقيت نوم إخوتهم، وخاصة إن كانا توأمين يمكننا إجراء فحص في مختبر النوم

بوليسومنوجرام ينام المريض في مكان مخصص ويوصَل بأقطاب شبيهة بأقطاب رسم المخ، وأجهزة لمراقبة التنفس وضربات القلب وغيره، وسنعرف إن كانا يعانيان اضطرابًا في النوم نتيجة خلل كهربي أو ما شابه.

يفلت قلب أسامة دقتين وهو يتذكر -يتخيل بالأحرى فهو لم يرَ شيئًا- حفيده الصغير ممزقًا داخل جهاز الرنين المغناطيسي. هل يجرؤ على اقتراح شيء كهذا على أمهما؟ هل يجرؤ على تحمل مسؤولية التمسك بالعلم أكثر؟! ماذا لو كان فعلًا يتحولان إلى قطين؟!

- حسنًا.. هل من طريقة يا دكتورة لإيقاظهما ولو للحظات؟

- بالتأكيد. هما ليسا في غيبوبة. التحفيز بإحداث الألم سيوقظهما غالبًا، لكن من يجرؤ؟ مأ..

نعم.. من يجرؤ..

شكرها قبل أن يسمع باقي ما قالت. من يجرؤ على التدخل في أي شيء من أي نوع؟

متهدّل الكتفين قصد الحمام فاغتسل، ثم ارتدى ملابس الخروج ليسافر إلى طنطا ويصلي الجمعة هناك، ثم يعرّج على أصدقاء شريف ليرَ أين اختفى.

يرتدي ملابسه وهو يلوم نفسه حتى يُدميها. أنت يا أسامة تترك شابًا في سن شريف خمسة أشهر لا تعرف عنه شيئًا إلا ما يقوله

لأخته؟ أنت يا أسامة تعتد مع شاب لم يجاوز العشرين عامًا لأنه قرر تجربة شيء مجنون؟ لأنه غاضب منك ومن الجميع؟

لقد قابله مرتين منذ بدء العام الدراسي في نهاية سبتمبر وتجاهله شريف كأنه لا يعرفه، فاستكبر أسامة أن يبادر بالحديث. والآن، يرى ما فعله الهرب، استسلام للاكتئاب والرغبة في الاختفاء.

يدس أسامة يده في جيبه ويخرج المحفظة ليتحقق من المال فيها، ليجده قد اختفى.

يبحث في جيوبه وفي السراويل والقمصان الأخرى، لا شيء.

يقلب الشقة الصغيرة قليلة الأثاث.. لا شيء.

لقد كانت النقود في المحفظة أول أمس، ولم يكن من داع لإخراجها أمس، هو لم يخرج.

ثمة سارق هنا. لكن مَن؟

ليس أمامه إلا الذهاب إلى المصرف، وليدعُ الله أن تكون ماكينة الصراف الآلي بها نقود، وأن يكون حسابه فيه ما يكفي حتى نهاية الشهر.

***

صوت الكرداشة يصم الآذان، وغبار القطن يحجب المدخل. يسعل أسامة مرتين، ثم يلقي السلام على رفاعة ومساعده، قبل أن يرى جمال خلف السحب، جالسًا يدخن النرجيلة كإله شعبي من قصص

نجيب محفوظ.

- السلام عليكم يا حاج جمال.

- مرحبًا. إلى أين مبكرًا هكذا؟

- إلى طنطا بإذن الله.

- ستزور أم العيال؟

- ليس بعد. سأطمئن عليهم وأعود إن شاء الله.

- لو قررت أن تزورها فسآتي معك. لا بد لكما من كبير.

تمهّل أسامة قليلًا قبل أن يقول وهو خارج:

- أطال الله عمر عمها. السلام عليكم.

عند سيارته، رأى أسامة رفاعة يعبر الطريق نحوه وهو يشير إليه، شعره مُلبّد بندف القطن.

- يا دكتور.. انتظر.

أخرج رفاعة من جيبه قلمًا ذهبيًا، وخاتمين، ومجموعة صور ثم دسهم فيه مرة أخرى وقال:

- لا مؤاخذة يا دكتور. نتقابل في المقهى..

ثم مال عليه وهو ينظر نحو المدخل:

- العَنْيب رابض..

- ماذا؟

- الرجل يراقب..

ثم انطلق رفاعة تجاه المقهى. نظر أسامة حوله في توتر ورأى جمال يحدق إليهما ويهتف:

- هل من شيء؟

- هه؟ لا.. كان.. يسأل عن فكة.

- ووجد؟

- لا.

انطلق أسامة بسيارته في الاتجاه المعاكس لاتجاه المقهى، ثم عاد من الشارع الخلفي ليجد رفاعة واقفًا ينقل ساقيه متعجلًا.

- ماذا يحدث يا رفاعة؟ ما هذه الأشياء؟ تعالَ اركب.

ركب رفاعة السيارة، وعرض ما في جيبه مرة أخرى وهو يقول:

- وجدت هذه الأشياء في داخل وسادة من بيت الحاج جمال.

قلّب أسامة في الصور ليجدها صور العائلة القديمة، وصورة لسناء في مراهقتها دون حِجاب مع فتاتين أخريين لا بد أنهما أختاها بسبب الشبه بينهما.

- من أين أتت هذه الأشياء؟

- علمي علمك. هذه أمانة، خذها وتصرف أنت. رأيتك رجلًا راجح

العقل، ولم أرَ الحاج محمد اليوم.

- في أي وسادة وجدتها؟

- لم يكن مكتوب عليها اسم صاحبها.

يضحك رفاعة، فلا يضحك أسامة. ثمة سارق في هذا المنزل. سارق لا يسرق المال فقط، بل ربما يعاني الكليبتومانيا؛ هوس السرقة، وهو أحد اضطرابات السيطرة على الاندفاع، لا يقاوم المريض به رغبته الملحة في ارتكاب جريمته.

رن جرس هاتف أسامة برقم محمد الصاوي.

- أين أنت؟ انجدنا.. أمينة اختفت!

***

يصعد أسامة ومحمد وخلفهما رفاعة إلى شقة أمينة. الباب مفتوح والظلام دامس بالداخل رغم النهار.

يسأل أسامة جمال:

- هل كان الباب مفتوحًا؟

- لا. فتحته بمفتاحي.

- معك مفتاح شقة أمينة؟

- وكل الشقق.. هذا عُرف. كبير العائلة معه نسخ مفاتيح كل الشقق. لا تنس أن هذا بيت أبي وأولى لي برعايته ورعاية من فيه.

يصمت أسامة وهو يكتم غيظه، فيقول:

- ماذا سنفعل؟ أين اختفت؟

يجيب أسامة:

- نبحث عنها طبعًا! المنطقي أنها لم تختفي داخل الشقة، لا بد أنها خرجت. ألا تخرج أبدًا؟

- لا. أحضر لها كل ما تطلب، ولا تخرج وحدها أبدًا.

- لا زال احتمال أنها خرجت هو الأوقع. هل بحثتم عنها في الطوابق العليا؟

ينظر محمد إلى جمال كأن لم تخطر هذه الفكرة على بالهم. ينطلق أسامة صاعدًا، بينما يظهر علاء من مكان ما، فيتلقى أوامر أبيه بأن يذهب معه ليبحثا عنها في الحقل، وليبحث عنها محمد وعلي في الشوارع المحيطة.

صعد أسامة لاهثًا حتى وصل إلى شقته، فلمح رفاعة يصعد خلفه في حرج وهو يقول:

- هل أساعدك يا دكتور؟ أنا لا أعرف أحدًا منهم، لكني ارتحت لك.

أشار له أسامة أن يتبعه، لعله يصاب بأزمة قلبية فيجد من ينجده. قبل أن يكملا صعودًا إلى السطح، توقف رفاعة وعقد حاجبيه كأنما يُنصت، ثم اقترب من حائط شقة أسامة، فسأله الأخير:

- ماذا؟

- صوت خطوات. هل يوجد أحد في الشقة؟

أنصت أسامة، ثم نظر حوله يبحث عن مصدرها، لكنه لم يجد شيئًا. ألصق أذنه بالحائط كما فعل رفاعة، يتبع الصوت الذي توقف قليلًا، تحرك في مكانه، ثم ابتعد سريعًا مصحوبًا بهمهات. قال المنجد:

- رغم صوت الكرداشة التي تصم الآذان، أذناي حساستان. تعوّدت في طفولتي أن أضبط وتر قوس التنجيد وأصغي إلى صوته. هذه مهنة أبي وأبيه من قبله.

- لعله صوت خطوات من طابق سفلي.

قال رفاعة في غير اقتناع:

- يجوز.

زفر أسامة، واتكأ على الحائط يصعد آخر درجات إلى السطح، وقد اشتد عليه ألم قدمه المصابة. خطرت على باله معالجته مروة ومكالماتها المشرقة الخالية من الهموم، لكن سرعان ما دفع الخاطر جانبًا وبدأ يبحث حوله. تذكّر الظل الذي رآه داخل شقة علي، فدفع بابها ودخل. الشقة مُتربة لكنها جاهزة على الفرش. يبدو فيها كل شيء كأن مَن صممه من مواليد ستينيات القرن الماضي. ذوق قديم لا يشي بأن علي وخطيبته لهما يد فيه. حتى ما طُلب من المنجد ذو

طابع عتيق. لحاف قطني؟ حقًا؟

قال رفاعة وهو يتبعه:

- ماذا ستفعل في موضوع ما وجدت داخل الوسادة؟

- سأفكر. ابحث في هذا الاتجاه وأنا سأبحث هنا.

اتجه أسامة إلى الحجرتين المطلتين على الحقل ونظر من أعلى. الحقل خال. هل أنهى جمال وعلاء البحث عن أمينة فيه بهذه السرعة أم عطّلهما شيء.

طبقة الغبار على الأرضية منقوشة بمئات آثار الأقدام في أحذية وأخفاف مختلفة، بعضها لأطفال. لا بد أنها لزين وزينة. خرج أسامة إلى الصالة و..

- ابتعد عني!

انطلق أسامة إلى الجهة الأخرى من الشقة ليجد رفاعة يلصق ظهره بالحائط ويغض البصر وأمينة ترفع يدها عاليًا ممسكة بقطعة من ماسورة.

- أمينة! أنا أسامة، وهذا هو المنجد!

أمينة تقف في الركن دامعة العينين، ترتدي ملابس منزلية خفيفة، فيخلع أسامة قميصه ويغطيها به، ثم يمسك يدها يجذبها إلى المخرج، فتسقط الماسورة من يدها.

- أسامة؟

- نعم.. تعالي يا أختي..

يضرب رفاعة كفًا بكف ويحوقل وهو يتبعهما ويجذب باب الشقة خلفه فلا ينغلق، يبدو أنهم لم يركبوا له كالونًا بعد. تقول أمينة:

- الشبح.. لقد كان هنا.

- رأيته؟

- أبي في كل مكان. تبعني إلى هنا.. هل تظن يا أسامة أن ظهوره لي يعني أنني سأموت قريبًا؟

- هذه تخاريف يا أمينة..

عند الدرج قابلوا جمال وعلاء، فسألهم أسامة:

- وجدناها، لا تقلقوا. ألم تبحثا عنها في الحقل؟

أجاب جمال على الفور وهو يسحب أخته من يدها ويبعدها عن أسامة:

- وجدنا البوابة مغلقة بالرتاج، ما يعني أنها إما صعدت، وإما خرجت إلى الشارع. هيا يا أمينة معي.

- جمال، يجب أن نتحدث.

- لاحقًا.

نزل جمال وابنه بأمينة إلى شقتها، فأودعاها فيها، وأغلق جمال

الباب من الخارج بالمفتاح، ثم أمر رفاعة أن ينزل ليكمل عمله حتى يحل موعد صلاة الجمعة.

لحق بهم أسامة، ووقف أمام جمال يمنعه عن دخول شقته.

- جمال. ماذا تفعل؟ هل ستترك أمينة على هذه الحالة؟

- ما بها؟ مجرد عجوز خَرِفة.

- هذا أدعى ألا نتركها وحدها هكذا. هل عرضتها على طبيب؟

- ومنذ متى نعرض المسنين الخَرفين على طبيب؟ هذه سنة الحياة.

- جمال، أمينة أصغر منك وحلتها الذهنية متدهورة. هذا ليس طبيعيًا، لسنا في العصور الوسطى، والمرض ليس من سُنة الحياة!

- أسامة، أنت لن تقيم هنا إلى الأبد، أليس كذلك؟ إذًا دع عائلتنا لكبيرها، ولا تنشغل كثيرًا بما يحدث. اختار أخوك ومن قبله أبوك الابتعاد عن العائلة، فالزموا الحدود التي وضعتموها.

دخل جمال شقته وأغلق الباب. نظر أسامة إلى رفاعة الذي ترنّع أرضًا، فتحاشى الأخير النظر إليه كي لا يحرجه، وتشاغل في الكلام مع مساعده بلغته المُشفَّرة إياها.

فكّر أسامة في الصعود إلى أمينة، لكنها لن تستطيع أن تفتح له، فجلس ينتظر عودة محمد وعلي، وقد قرر أن يؤجل زيارة طنطا إلى الأحد.

قال المنجد همسًا وهو ينظر نحو باب شقة جمال:

- الإبرة مأحليّة..

- ما خطب الإبرة؟

- أقصد الـ.. الست.

- منار؟

يهز الرجل رأسه إيجابًا، ثم يُخرج هاتفه المحمول ويقول لأسامة:

- هات رقمك.

يمليه عليه، ثم يضع رفاعة الهاتف في جيبه ويكمل عمله في صمت.

***

أغلق جمال بوابة المنزل بالقفل الكبير قبل أن يقصد والرجال المسجد لصلاة الجمعة. يسير أسامة خلف جمال وولديه مع محمد، وخلفهما رفاعة ومساعده.

- محمد.. هل تشم هذا العطر؟ الشبيه بالبخور؟

- آه.. جميل.

- ألم تشمه من قبل؟

- بالتأكيد. هو عطر جمال أو أحد ولَديه.

- تذكّر يا محمد، يوم انغلق باب شقتي وفتحت أنت لي. ألم نشم الرائحة ذاتها بالداخل؟

- حقًا؟ لا أتذكر. لكن ما معنى هذا؟ كان علاء وجمال يبحثان عن أمينة ثم قابلتهما أنت على الدرج كما حكيت لي، وعلي كان معي.

- أنا لم أرَ جمال وعلاء في الحقل عندما نظرت من أعلى. ماذا كانا يفعلان في شقتي؟

- غريبة.. هل سمعت باب شقتك يُفتح أو يُغلق؟

- لم أسمعه، ووارد أنهما دخلا دون أن أسمع، لكن رفاعة سمع صوت خطوات من جهة شقتي، ولم يخطر لي أن أدخلها، فقد انشغل بالي بأمينة.

صمت محمد هنيهة ثم سأل:

- متى دخلا؟ أتذكر أننا انطلقنا كل إلى جهة مختلفة، فلايمكن أن يكون قد دخل قبل أن تصعد أنت إلى السطح.

- ربما دخلا بعد صعودي.

- ماذا عن أصوات الخطوات التي سمعها رفاعة؟ ما مصدرها؟

- أتوقع أن تكون صوت خطوات أمينة في شقة علي بالأعلى.

- السؤال هو، ماذا كانا يفعلان في شقتك؟

جاء دور أسامة في الصمت؛ كيف سيخبر محمد أن أخاه وابنه

مرقا منه ماله؟ لماذا يفعل ذلك؟ الحل الأوقَع أن رائحة العطر اختلطت عليه لا أكثر وأن الرائحة التي شمها في شقته مصدرها المَنوَر مثلًا..

تفسير غير مريح ومليء بالثغرات، لكنه الوحيد القادر على الصمود حتى الآن، ما لم تكن الأشباح تترك رائحة بخور واحتراق وتسرق المال..

يتذكر ما قالته أمينة..

- « لا بد أنه قرينه، لا شبحه. ألا تعرف أن الأعمال تُرافق بوجود الجن؟ في البيت من سمح بدخول الجن إلى هنا.»

بعد الصلاة، وكأن اليوم يُتكرر مرة أخرى، رأوا بائعًا جوّالًا يقف عند بوابة بيت العائلة المُقفلة ويحاول تهدئة صوت الصراخ النسائي القادم من الداخل. مرة أخرى يهرول محمد، ويتبعه جمال بخطى واسعة ويلحق بهم أسامة وهو يتبادل النظرات مع رفاعة.

الإبرة مأحليّة حقًا!

يفتح جمال البوابة بسرعة، فيندفع محمد ليجد أمينة هذه المرة ذاهلة، بملابس وشعر مبتل، تتلقى كلمات الإهانة من منار، وبينهما مناه تُضمِّد ذراعها وتبكي. ما أن رأت الرجال حتى صرخت:

- ابعدوا هذه المسحورة عنا!

- أنا مسحورة أيتها الساحرة التي تغوي الرجال وتتخفى خلف

الطرحة والعباءة؟

صاح جمال:

- كيف فتحتِ لأمينة؟

أجابت منار:

- لم أفتح لها! المفاتيح كلها معك! كنت أحضّر الغداء وحدي، فسمعت صوت صنبور الحمام يُفتح والماء ينهمر. ظننته واحدًا من قليلي التربية أبناء سناء وقد تسلل دون علمنا.

- ربيت ابنيّ أحسن تربية! التفتي إلى أبنائك أنتِ!

اتسعت عينا منار في صدمة للحظة، ثم تمالكت نفسها وقالت:

- جمال! رُد أنت!

ناول رفاعة قطعة من قماش البفتة لمحمد كي يغطي أخته، بينما يهتف أسامة كأنما قد جُن:

- اصمتوا جميعًا! عشة الدجاج أكثر عقلانية منكم! ماذا وجدتِ في الحمام، وأجيبي دون تفاصيل لا لزوم لها!

- وجدت هذه! أمينة.. تقف داخل حوض الاستحمام، وحين رأتني رمتني بعلبة الشامبو وكادت تفتح دماغي!

سأل أسامة أمينة:

- كيف خرجتِ يا أمينة من شقتك؟

شردت أمينة في وجهه لحظات قبل أن تجيب همسًا:

- أبي أخرجني.

أمسك جمال بذراع أمينة في عنف وسحبها إلى الدرج وهو يقول:

- هيا اصعدي معي.

كاد أسامة أن يلحق بهما، فأشار له جمال مُردفًا:

- دعوني معها قليلًا.

نظرت أمينة نحو أسامة ومحمد وسألت بعينين دامعتين:

- ماذا يحدث؟ أين أنا؟!

أطرق الجميع أرضًا في خشوع لمرأى ما يفعله الزمن في فاتنة قوية كهذه. لكن كيف خرجت حقًا؟ كسرت الباب؟

استدارت منار إلى سناء وصرخت فيها:

- وأنتِ. لك حساب بعدما ينزل الحاج.

يسأل محمد:

- ماذا حدث لذراعك؟

- كنت أحاول منع هذه الحرباء من ضرب أمينة، فعضّتني!

وضعت منار كفيها على جانبي خصرها وهتفت:

- وأنتِ، كيف عرفتِ أنها عندي قبل أن يصل صراخي إلى عندك؟

لديك مفتاح شقتها بالتأكيد، وأنتِ من فتح لها.. سرقته من الحاج أليس كذلك؟

اتسعت عينا سناء في ذعر وهي تقول:

- قسمًا بالله ليس معي! أنا.. أنا سمعت خطوات نازلة على الدرج ولم يكن في البيت سوانا نحن الثلاثة، فارتديت إسدالي ونزلت لأجدك تصرخين.

التفت الجميع إلى وقوف علي في الركن يحدق إلى الجميع، ثم يصيح:

- ما أنتم؟ شياطين؟! ألن نعيش حياة طبيعية أبدًا؟!

أخرسه صوت أبيه ينزل الدّرج ويقول بصوت ثابت آمِر:

- إنا كنا شياطين فأنتِ ابن أبالسة، ابن حرام. ادخل أنت وأمك وأخوك.. أين أخوك؟

نظر الجميع حولهم، وقال رفاعة:

- رأيته بعدما دخلنا يخرج إلى الحقل بالخلف.

اندفع علي إلى البوابة الخلفية وتبعه أسامة، بينما اصطحب محمد أرملة أخيه إلى شقتها. هتف أسامة بالشاب الحانق:

- علي.. أريد أن أتحدث معك بصراحة. لا تخش شيئًا.

- اتركني في حالي يا عمي.

ثم أخذ ينادي على أخيه دون مجيب، ثم يسأل:

- أين ذهب؟

- ربما خرج إلى الشارع ونحن مشغولون.

- كيف ولا ممر إلا المدخل الذي كنا نملأه؟

- علي.. كيف هي علاقة أمينة وسناء؟

- أحيانًا هما مقربتان للغاية، خاصة في أول زواج طنط سناء وعمي، ثم آخر عامين أو ثلاثة انقطعتا عن زيارة بعضهما تمامًا، وأحيانًا يزداد التشاحن بينهما، لكنه لا يُقارن بما يحدث بين أمي وزوجة عمي. أتذكر أن بداية قطيعتهما عندما زعمت عمتي أنها ترى شبح جدي ولم تساندها طنط سناء. فهمت أنها كانت تشكو أيضًا من وجود شبح، لكنها أنكرت أمام أبي.

- هل رأيت أي شبح يا علي؟ هل تختفي أغراض من منزلكم؟

- لم أرَ أشباح، أما الأغراض فتختفي من المنزل كله بلا انقطاع، ولا تجد أمي تفسيرًا لهذا إلا أن زين وزينة يتحولان إلى قطين ويسرقان الأشياء.

استند أسامة إلى جرار خُردة يقف هناك، وحك رأسه مفكرًا، ثم سأل:

- هل بدأت الأشياء تختفي منذ مولد الطفلين؟

- لا أتذكر تحديدًا. ربما وقتها أو بعدها بعام أو اثنين. لماذا تسأل؟

هل رأيت شبحًا أو اختفى من عندك شيء؟

حكى له أسامة ما لاحظه، فغمغم علي:

- الوحيد الذي لا يشتكي من اختفاء أشياء من عنده عمي محمد. هو الوحيد الذي كان يطالب بتفسير منطقي لما يحدث؛ لو كان المنزل مسكونًا أو الطفلان قطين لأصيب بما أصيب به الباقون.

- وما رد فعل والدك على كل هذا؟

- تخيل؟ لا شيء. ضاع منه قلم من الذهب الخالص، إرث من جدي رحمه الله، ولم يفعل أي شيء.

اتسعت عينا أسامة من خلف نظارته وسأله:

- متى اختفى القلم؟

- منذ عامين أو ثلاثة.

- منذ تغيّر حالة عمتك الصحية؟

- أجل. تقريبًا.

سمعا صوت قدمين تنزلان الدَّرج، فدلفا إلى المدخل ليريا علاء نازلًا من أعلى. سأله أخوه:

- كنت على السطح؟ كيف صعدت ولم نرَك؟

- منذ متى وأنتم ترون إلا ما تريدون رؤيته.

مرَّ علاء من أمامهما إلى شقة أبيه، فشمَّ أسامة رائحة السجائر

مخلوطة برائحة العطر الشبيه بالبخور. ذات العطر الذي يضعه جمال وعلي. سأل أسامة علي:

- هل تدخّن؟

- لا. علاء فقط..

- وجمال؟ هل يدخن شيئًا سوى النرجيلة؟

- أحيانًا يدخن السجائر. لماذا تسأل؟

صمت أسامة، وربّت على كتف الشاب، ثم صعد الدرج ليجد باب شقة سناء مواربًا. وقف عند الباب وهتف: «السلام عليكم»، فخرج له زين على الفور.

- عمو.. تعالَ. عمو محمد مع أمي بالداخل.

مال أسامة مداعبًا شعر الولد وهو يقول:

- زين، أريد أن أسألك عن شيء. هل تعرف القطين السياميين الذين يلعبان على الدرج؟

- أعرفهما. قِطّا طنط عطية الله يرحمها.

ركع أسامة أمامه وأمسك كتفيه وسأله:

- قطّا عطية زوجة أبيك الأولى؟

- نعم. كانت تقول لنا أنهما أبناؤها. كان لديها قطة تشبههما وولدت هذين القطين قبل أن تموت طنط عطية بقليل، فأعطت القطين

لعمتي أمينة كي تربيهما بعدما تذهب هي عند ربنا. أنا أعرف أنها لم تذهب عند ربنا، بل ماتت ودفنوها تحت الأرض.

- كل من يموت يا حبيبي تذهب روحه عند ربنا، ويُدفَن جسده فقط تحت الأرض.

- لا.. روحه لا تذهب عند ربنا. جدي مثلًا لم يذهب إلى الجنة. هو هنا معنا وأصبح مخيفًا.

تخور رُكبتي أسامة تحته، فيضطر إلى الجلوس على الدّرج فاردًا ساقيه أمامه، لافًا ذراعه حول خصر الطفل.

- هل.. تعني أنك رأيت ما يقولون أنه شبح جدك؟

- كنت نائمًا في يوم بعد المدرسة، ورأيت من يتحرّك في الحجرة مرتديًا ملابس سوداء. كان واقفًا أمام الخزانة المفتوحة. لا بد أنه خرج منها، أليس كذلك؟

- متى حدث هذا؟

- بعدما مات أبي بقليل، وبدأت زينة تقول أنها ترى أحلامًا مخيفة.

همس أسامة لنفسه: «ركّز يا أسامة.. ركّز»، ثم قال لزين:

- ما شكل هذا الشبح الذي رأيته؟

- كنت خائفًا، فأغلقت عينيّ بسرعة. الغرفة كانت مظلمة. بعدما رحل صرخت وجاءت أمي وقالت لي أنني كنت أحلم. صدقتها، ثم سمعتها تقول لعمتي أمينة أنها ترى شبحًا، فقلت لنفسي أنها كذبت

علي، ماما تكذب كثيرًا..

- مهلًا.. أولًا لا يصح أن تقول هذا عن أمك.. ثانيًا، في أي شيء تعتقد أنها كذبت؟

- زين؟! تعالَ هنا!

هكذا صاحت سناء وهي تتبع محمد توصله للباب. قال الأخير:

- لا داعي للمزيد من الصراخ يا أختي. هذا عمه.

- لا يجب أن يزعج عمه بكلامه الكثير. هيا يا زين لتأكل مع أختك. تفضّل يا دكتور أسامة الغداء.

شكرها أسامة، ثم بعدما أغلقت الباب أمسك بكتف محمد وقال له:

- اتبعني.. أريد أن أتأكد من بعض الأمور..

صعد أسامة الدّرج أمام ابن عمه حتى وصل إلى شقة أمينة. فحص الكالون وتأكد من أنها لم تحطّمه، مما لا يترك إلا تفسيرًا واحدًا؛ سناء معها مفتاح شقة أمينة، وربما باقي شقق العمارة.

- «ماما تكذب كثيرًا..»

- محمد، هل معك نسخ مفاتيح باقي شقق العمارة؟

- لا. شققي فقط؛ شقتي التي أسكن فيها وشقتك والشقة في نفس الطابق.

صعد أسامة إلى الطابق الأخير حيث شقق محمد، ثم أشار إلى

الباب المقابل لشقته وقال:

- هل ثمة سبب أن كل الشقق المسكونة على الجانب الأيسر من المنزل، فيما عدا شقتك؟

- جمال هو من صمم الطوابق العليا على هذا الشكل. أبي بنى الطابق الأرضي والأول المرتفع حيث شقة عزّت رحمه الله، على ثم بعد وفاته، وبناء على وصيته، بنى جمال الطابق الثاني لتسكن فيه أمينة بعدما يئس من زواجها ومن إقامتها مع زوجته، وعشت مع أمينة فترة حتى تزوجت أنا، فبنى جمال –على حسابي طبعًا- الطابق الذي نحن فيه الآن، وقسّمته أنا بهذا الشكل كي أتمكن من تأجير الشقق الأخرى لزيادة دخلي. لم أفكر كثيرًا وأنا أختار العيش عند الجهة اليمنى من المنزل. ربما لأنها تطل على معرض الترومسيكلات، لا على المسقط الرطب.

هز أسامة رأسه لكنه لم يكن قد استنتج شيئًا بعد. لم يُجب سؤال محمد عن سبب أسئلته، وعاد إلى شقته فأغلق الباب خلفه بالمفتاح، وجلس ممسكًا بهاتفه المحمول.

رقم سهير يتراجع إلى أسفل قائمة الاتصال.

ضغط زر الاتصال بطبيبة المخ والأعصاب ماريا. فكّر في أن يشاركها ما يحدث، فبالتأكيد هي ليست متورطة، ولها عقل راجح يعرفه من خلال آرائها عن سلسلة كتبي –أنا لاشين- وعن برنامج سهير.

رد الجرس عِدة مرات حتى أجابت بصوت مُرهَق، فقال:

- معذرة يا دكتورة. أتصل في وقت غير مناسب؟

- أبدًا. عدت للتو من الكنيسة ومرهقة قليلًا، هل أنت بخير يا دكتور؟

- لدي بضعة أسئلة أخرى سريعة لو سمحت.

سألها أسامة عن أمينة وحالتها وشرودها، وقد شك أنها تعاني مرض ألزهايمر فأجابته أنه احتمال وارد إلى جانب عدد آخر من الاحتمالات، مثل نقص بعض العناصر الغذائية، وأمراض المخ وأورامه، وغيرها. اقترح عليها أن تزور أمينة وزين وزينة زيارة منزلية على حسابه لتبدي رأيها الطبي، فاعتذرت لأنها لا تكشف على المرضى في منازلهم، وتعلّلت بضرورة إجراء تحاليل وفحوص إلى جانب الكشف السريري.

أدرك أسامة أنه يحمّل عليها أكثر من اللازم. أي طبيبة قد تترك بيتها وعملها وتسافر إلى طنطا من القاهرة كي تكشف على مرضى؟ ما جعله يطلب منها هذا أنها على علم بما يجري من غرائب في حياته، وإن كانت أمينة تتنقل من مكان إلى آخر عبر الأبواب المغلقة، أو أن الطفلين يتحولان إلى قطين، فهي منفتحة كفاية كي تتفهم هذه الشكوك دون اتهامه بالجنون.

هذا باب آخر مغلق أمامه.

ينظر إلى رقم مروة.. هل يشك في محمد لدرجة أنه يبحث عن

شخص آخر يشاركه التفكير؟

همس لنفسه: «أمامة! هل خلت حياتك من الرجال كي تتصل بامرأة فقط لتعوّض فقدك لزوجتك؟! انتبه لنفسك!»

ثم همست له نفسه: «وبمن أتصل؟ مهاب الذي يسافر مع لاشين وكأنه لم يتسبب في خراب بيتي؟ أم شريف الذي يتحاشاني؟ أم رانيا الغاضبة مني كأنني نسخة طليقها؟»

زفر وهو يستغفر الله العظيم، ويضغط على رقم بلا اسم على شاشة هاتفه المحمول.

- أستاذ رفاعة. هلا تقابلنا في المقهى بعد نصف ساعة دون أن يلحظ أحد؟

***

الفصل الثاني

- الإبرة مأحليَّة يعني أن المرأة ليست على ما يرام يا دكتور. اعذرني، لساني اعتاد على هذه الطريقة في الكلام. عملنا يجعلنا نرى ونسمع ما لا يجب أن نرى أو نسمع. تتكشف أمامنا أسرار رغمًا عنا، وعلينا أن نتكلم أو نحذر بعضنا البعض دون أن يفهم أحد. لكل مهنة «السيم» الخاص بها.

ثم رشف رفاعة رشفة قهوة من الكوب الزجاجي. قال أسامة:

- وماذا رأيت من السيدة منار كي تظن أنها مأحليَّة؟

- كنت أبحث عن المَدَق منذ الصباح، وكأن بسم الله الرحمن الرحيم خطفه. اختفى! ثم رأيتها تتسلل من خلف منضدة أدواتي، وتعيد المَدَق إلى مكانه.

- متأكد؟

- رأيتها كما أراك الآن يا دكتور. هل تعتقد –ولا مؤاخذة في الكلام- أنها هي من... أخذت القلم والصور والخواتم ودفنتهم في الوسادة؟

فكَّر أسامة في أن القلم قلم زوجها، لكن هل كانت الصور عنده أيضًا؟ لماذا يحتفظ بصور سناء وهي صغيرة؟ ومن أين له بها؟ أم أنها سرقتها من شقة سناء؟

لو أنها مريضة بداء السرقة، فسرقة صورة لن تكون غريبة عليها.

هل هي من وضعت العَفَل في الحشية إذًا؟

- هل لاحظت أي شيء غريب آخر أثناء عملك؟

- تعرف أن أذنيّ حساستان.. لا أنفك أسمع صوت جر أخشاب وصوت خطوات تقترب وتبعد. كأنها تصعد وتنزل، لكن ليس على الدَرج. أسمعها لكن حتى مساعدي لا يسمعها.

أسامة يسمعها أيضًا لكن في سكون الليل فقط. هل من شبح يتحرك عبر المنزل ولا يراه أحد حقًا؟ ضرب أسامة على فخذه وقال مضطرًا:

- سأحكي لك شيئًا، لكن عِدني أنه سيكون سرًا. عهدتك مصدر ثقة يا أستاذ رفاعة.

- أعاهدك يا دكتور. البيوت أسرار ولم أخرج سر بيت في حياتي.

حكى له أسامة كل شيء، فطلب رفاعة كوبي قهوة آخرين وقال:

- هذا سمت بيت العائلة. أسميه بيت الزواحف، ولا تؤاخذني..

ضحك الرجل فضحك أسامة دون وعي، أردف الأول:

- تسألني لماذا الزواحف؟ لأن كل شيء يجري خلف الحوائط وفي الظلام. لا يمكن أبدًا أن تعرف من الظالم ومن المظلوم. أفاعٍ تنشب أنيابها في بعضها البعض. رأيي أن تبتعد يا دكتور، لكني أعرف أنك لن تفعل. أنت رجل شهم وأصيل. بماذا تأمرني وأنا خادمك؟

- فكّر معي..كيف تخرج أمينة من شقتها وهي مغلقة؟

- بمفاتيح مع السيدة سناء.. أو كما قالت، بمساعدة شبح الجد.

- لماذا لا يستيقظ الولدان ليلًا بطريقة طبيعية؟

- بسبب النوم الثقيل على رأي الدكتورة، أو لأنهما يتحولان إلى قطين.

- لكن القطين قطان عاديان. قالت لي أمينة أنهما أبناء الغالية، وكانت تقصد عطية رحمها الله، لا سناء وتوأميها.

- إذًا اسأل السيدة أمينة.

- من يسرق الأغراض من الشقق؟

- السيدة منار.. أو شبح الجد.

- الشبح لن يُخفي المسروقات في الوسائد. كيف تدخل منار الشقق؟

- يبدو أن مفاتيح الحاج جمال لم تعد ملكية خاصة به.

- مَن يغذي فكرة الشبح؟ أمينة وهلاوسها؟ إذًا من رأى زين وأمه؟

أضاء وجه أسامة فجأة فهتف:

- ماذا يا رفاعة لو أنه لا يوجد شبح، وأن السارق هو الشبح.. رأته أمينة فظنته أبوها؛ شقتها معتمة دائمًا. ورأته سناء فظنته شبحًا بناء على مزاعم أمينة، ورآه زين وريما أخته وخافوا لأنهما طفلان!

- إذًا السيدة منار هي السارقة؟ لكن كيف تدخل الشقق دون أن يلاحظها أحد؟! وكيف نثبت هذا؟

منار لا تسرق يوميًا، وربما تسللت إلى شقة أسامة وسرقت اللحم وأخلّت بوضع الكتب كي يترك الشقة ظنًا أن فيها شبحًا. جمال لا يريده هنا وحتمًا هي كذلك. لكن كيف دخلت شقته وهو فيها والباب مغلق بالمفتاح من الداخل؟ هل دخل جمال شقته يوم اختفت أمينة قبل أن يصعد إليه على السطح؟ ولأي غرض؟

لو أن إثبات وجود الأشباح سهل لانتهت المشكلة في دقائق.

- رفاعة.. أريد منك خدمة.. اسمع..

***

في السادسة مساء يصرخ أسامة عند قمة الدرج:

- شبح! في شقتي شبح!

يطرق باب محمد الصاوي في جنون حتى يفتح، فيجذبه من يده ينزل به الدرج وهو بعد يهتف:

- شبح يا محمد.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

- أين هو؟ ولماذا ننزل؟

- لقد اختفى في الأرضية! غاص فيها!..

يطرق أسامة على باب أمينة، فتجيبه بصوت واعٍ قلما يسمعه

منها، فيهتف:

- أمينة افتحي.. ثمة شبح في شقتي وقد غاص في الأرضية.. هل هو عندك؟

- عندي؟ لا! لا أرى شيئًا! افتح أنت الباب!

عندما يدعي رجل في وقار وعقل وتعليم أسامة أنه رأى شبحًا، فتأثير ادعائه يكون مضاعفًا، خاصة لو كان يصرخ ويركل ويضرب بهذا الشكل.

قال محمد:

- سأنزل لأجلب بالمفتاح من جمال.

من الطابق الأسفل رأى أسامة رأس سناء تنظر إلى أعلى متسائلة:

- ماذا يحدث؟ أي شبح؟

- شبح يا سناء في شقة أمينة وشقتي! أنا رأيته ينزل إلى شقتها! ليجلب أحدكم المفتاح يا عالم!

يختفي رأس سناء، ويسمع بابها يُغلَق. تقول أمينة من الداخل:

- أسامة! أسمع صوتًا غريبًا.. لا بد أنه شبح أبي! صوت خطوات لا أرى صاحبها!

يسمع أسامة الصوت ذاته، خافتًا، ثم صوت الجر..

يصعد جمال الدرجات سريعًا وهو يمد يده أمامه بالمفتاح ويفتح

باب أمينة.

- أي شبح أيها المخبول. سوف تتسبب في ذعرها.

- اسمع! صوت خطوات لا ترى أمينة مصدرها.

 .. أنصت جمال، لكن الصوت توقَّف. دفع الباب ليجد أمينة خلفه ترتجف، تنقل نظرها بينه وبين محمد وأسامة، ثم ترمي نفسها بين ذراعي أخيها الأصغر.

- يا محمد.. الشبح حقيقي؟ ألم تخبرني أنني أتوهَّمه؟ ألم أخبركم وقلتم أنني مُخرِّفة! الشبح حقيقي يا أسامة، أليس كذلك؟ هو مَن نقلني إلى شقة جمال!

سألها أسامة:

- ماذا تتذكرين عن هذا اليوم يا أمينة؟

قاطعه جمال:

- مَن تسأل؟ ذاكرتها مختلطة وبالكاد تتذكرنا. هيا يا أمينة انزلي معنا.

سحب جمال الباب وأغلقه مرة أخرى بالمفتاح، ثم نزل الثلاثة على الدَّرج ليجدوا رفاعة واقفًا عند المدخل يبسمل ويحوقِل وهو ينظر إلى ما فوق باب شقة جمال، حيث وقفت منار وعلاء وعلي.

- رأيته! رأيت الشبح! شيء.. شيء أسود عملاق.. بسم الله الرحمن

الرحيم!

يهتف جمال:

- علاء، اصعد لزوجة عمك سناء واطمئن عليها. هيا.

يتجه الشاب إلى البوابة الخلفية في ارتباك، ثم يعود إلى الدّرج ويمر من جوار أبيه الذي ظل يحدق إليه في غضب، ثم سرعان ما التقى زينة وزين ينزلان وهما يصرخان.

- أمي اختفت!

التفت جمال إليهما وسألهما في عنف زائد:

- ما هذه التخاريف؟ ماذا حدث؟

- سمعنا عمو أسامة يقول أن هناك شبحًا، ثم خرجت أمي تتأكد مما يقول، وعادت لتطلب منا أن ننتظر في حجرتنا حتى تعود لنا. تأخرت وخفنا، فنادينا عليها ولم تُجب. بحثنا عنها فلم نجدها!

أبعد جمال الطفلين من طريقه، فتمسّكت زينة بملابس علاء كي لا تسقط. صعد الرجل وأسامة ومحمد خلفه، وبمجرد أن وصلا باب الشقة، وجدا سناء تخرج منها بوجه محمر.

- أين كنت؟!

- في الحمام! الأولاد من خوفهما لم يسمعاني.

- انزلي!

قالها جمال ثم أغلق باب شقتها بالمفتاح.

اجتمع الجميع في المدخل، علي يطوق كتفي أمه المرتعبة، وسناء تجلس على الدَّرج مع ابنيها، وأمينة بعد مُندسَّة في صدر محمد، ورفاعة جوار البوابة يرتجف.

قال أسامة:

- هل رأى الشبح أحد منكم سواي ورفاعة؟

قالت أمينة:

- أنا.. أنا سمعته.. وأنت سمعته مثلي.

نظر جمال إلى السقف شاردًا وقال بصوته الجَهْوَرِيّ:

- إذًا.. يوجد شبح في المنزل كما ادَّعت أمينة.. هل تريد أن تقول هذا يا أسامة؟

- أنا لا أقول سوى ما رأيت يا جمال. أنت تعرف أنني رأيت أشباحًا أكثر من عدد شعر رأس.. أعني رأسك، وأعرف كيف تبدو. لم يفزعني سوى أنه غاص في الأرض مهددًا سلامة أمينة.

ثم أخرج أسامة هاتفه المحمول من جيبه وعرض فيديو عليه، تجمَّع الموجودون حوله. فيديو يبين ظلًا أسودًا يتحرك في ظلام شِبه دامس.

- هذا فيديو صوَّرته له.

نظر الجميع إلى بعضهم البعض، فقال رفاعة:

- أجل.. هذا ما رأيته.

سأل جمال متشككًا:

- لكن ما في الصورة ليس ضخمًا كما زعمت يا أسطى رفاعة.

- كان.. كان ضخمًا هنا.. لكن له الشكل والهيئة نفساهما.

أعاد أسامة الهاتف إلى جيبه سريعًا وقال:

- والآن، يجب أن نتحدث جميعًا وبصراحة. من منكم رأى شبحًا من قبل؟

رفع زين وزينة أيديهما إلى أعلى، ورفعت أمينة يدًا مرتجفة، وكذا منار.

سأل جمال:

- أنتِ يا منار؟ أي شبح؟

- شبح.. شبح كأي شبح يا جمال. رأيته.. مرتين ليلًا ولم أخبر أحدًا كي لا تتهموني بالإيمان بالخرافات لأني لم أنل تعليمًا عاليًا مثلكم.

نظر أسامة سريعًا إلى رفاعة الذي هز كتفيه بمعنى «ماذا يحدث»، ثم قال:

- من لاحظ اختفاء أشياء من شقته؟ سُرق مني مال وغيّر أحدهم من ترتيب كتبي.

زاغ بصر منار ودارت في الوجوه المصفرة حولها، ثم قالت:

- جمال ضاع منه بعض الأشياء، وأنا أيضًا.

وقالت سناء:

- فقدت بعض الصور القديمة لي وسلسلة فضية وبعض ألعاب الأولاد، لكني لم أعبأ.

همست أمينة:

- لا أعرف إن كان شيء فُقِد من عندي، لكني.. لكني وجدت شيئًا لا أعرف من أين لي به. قلمًا أحمر، وخيوط، و.. وصورة زفاف منار وجمال..

سأل محمد:

- وأين هم الآن يا أختي؟

- لا أعرف.. لا أتذكر.

قالت سناء بصوت عالٍ:

- لا بد أنك تخيلتِ هذا يا أمينة. من أين لكِ بها وأين اختفت.

غمغمت أمينة:

- ربما.. محمد.. خذني للطبيب..

- حاضر يا أختي.

انبرت منار تقول:

- مثلي دور الخَرِفة يا أمينة، لقد دفعتني للشك فيك يا سناء يا أختي، وقد نسيت أنا لأن قلبي طيب أنها سبب مشاكل العائلة كلها، ولا بد أنها هي من صنعت هذا العَمَل لتفرق بيني وبين زوجي. هي الساحرة التي لا تمنعها الأبواب المغلقة من دخول بيوت الناس. ماذا كنتِ تفعلين في حمامي أيتها الحيزبون؟!

واندفعت منار نحو أمينة، فخبأها محمد خلفه وجمال يقول بصوت كاد يُسقِط السقف فوق رؤوسهم:

- كفى! صمتًا! وأنت يا أسامة، لماذا تحقق في الأمر كأنك وكيل نيابة؟ هل اشتكى لك أحد؟

- سُرقت ورأيت شبحًا، وأنت لا تبالي يا جمال بكل ما يجري. هلا أخبرتني لماذا تغلق الأبواب بالمفاتيح هكذا؟ لماذا تحبس أختك؟ لماذا تمنع أهل المنزل من التواصل مع بعضهم بشكل صحي؟

- ليس هذا من شأنك. قل لي كم سُرِق منك وسأدفعه لك، وارحل من هنا.

قال محمد:

- جمال، هو يسكن في ملكي أنا.

يضحك جمال ويقول:

- ملكك؟ تذكر يا محمد أن مالك لم يكن ليبني لك طابقًا كاملًا.

- وتذكر يا جمال ما أكلته علينا من ميراث. هيا يا أمينة يا أختي، اصعدي مع سناء ولا تمكثي وحدك.

قال جمال متهكمًا:

- وسناء ليس لها من الطابق الذي ترتع فيه شيئًا. كل هذا ملكي أنا! أنا الذي بنيت وحافظت وراعيت وكل واحد يده في الماء البارد! هيا يا سناء، ألا تريدين الذهاب لأمك؟ مع السلامة واتركي الولدين.

صرخت زينة:

- ماما! لا.. سنرحل معها!

سأل أسامة فجأة:

- جمال، من كان في مسكني يوم اختفاء أمينة؟ أنت أم علاء؟

حدق جمال في وجه أسامة وانتفخت أوردة عنقه. باغتهما زين بقوله وهو يختبئ خلف أمه:

- عمو جمال هو الشبح يا عمو أسامة.

نظرت الأعين إلى الصبي الذي لطمته أمه وهي تقول من بين أسنانها:

- اخرس! قلت لك لا شبح. ما رأيته حلمًا.

- ليس حلمًا! أنت تكذبين! لقد رأيته عندنا ليلًا وأنت تقولين له لا يصح يا جمال، ماذا لو سمعك الأولاد.. كيف سأشرح لهم.

لطمت منار خديها وصرخت:

- نهار أبيكما أسود!

حملت سناء ابنها وجرّت ابنتها وحاولت الصعود إلى شقتها، لكن علي صعد الدّرج سريعًا خلفها وأمسك ذراعها هاتفًا:

- أين ستذهبين؟ ماذا يحدث هنا؟

هدر جمال:

- ولد، اتركها! عودوا جميعًا إلى شققكم الآن!

- لا يا أبي.. لن نعود. ماذا بينك وبينها؟

انفجرت سناء في البكاء وانهارت على الدرج وهي تقول:

- ليس كما تظنون.. جمال.. جمال عرض عليّ الزواج. كان يأتني أحيانًا في الليل كي لا تعرف منار، ويطمئن على الأولاد وحالتهما الغريبة، ويواسني في وفاة عزت، ثم طلب مني الزواج، لكني رفضت كي لا أخرب بيته وأفرق العائلة. غضب عليّ وهددني، لكني لم أكن في حاجة إلى تهديد.. ما كنت لأفشي هذا السر.. قسمًا بالله ما كنت لأفشيه..

بينما منار تلطم في صمت، سأل أسامة:

- زين، كيف سمعتهما ليلًا؟ هل تستيقظ؟

التفتت سناء نحوه كأن السؤال لم يخطر ببالها، فقال:

- زينة هي التي تنام ولا تستيقظ، أنا فقط أحب أن أفعل مثلها وأنام في توقيت نومها نفسه كي.. كي لا أظل وحدي مع ماما وهي تبكي ليلًا أو.. أو تتحدث مع طنط أمينة في أمور مخيفة. ثم قالت طنط منار أننا نتحول إلى قطط، فأعجبتني الفكرة وحاولت أن أتحول إلى قطة مثل زينة ولم أستطِع.

قال أسامة:

- لكن القطين السياميين هما قطا السيدة عطية زوجة عزت رحمهما الله، أليس كذلك يا أمينة؟

قالت أمينة:

- بلى.. استأمنتني عليهما فقد كانت تعتبرهما ابنيها، ثم لم أعد قادرة على العناية بهما في شقتي فأطلقتهما على الدرج. ما علاقتهما بالتوأمين؟

قال علي:

- فهمتك يا عمي. أمي لم تكن تقصد أنهما يتحولان إلى هذين القطين السياميين بالذات، بل قطين.. أي قطين من قطط السلم.

سأل أسامة:

- يا زين، في أي أمور مخيفة كانت أمك وعمتك تتحدثان؟

هتفت سنام:

- كفاكم! كفاكم!

أجاب زين:

- كانت تتحدثان عن الشبح الذي تراه عمتي، والعمل.. العمل الذي طلبت أمي من عمتي أن تصنعه. ما هو هذا العمل؟

قاطعته سناء:

- قبل أن تسيئي الظن يا منار.. أنا طلبت منها أن تصنع لي عملًا كي توفق بينك وبين جمال وينساني تمامًا ويبتعد عني.

سأل محمد:

- وكيف ستصنعه أمينة؟ ما علاقتها بالأعمال؟

- هي أخبرتني أنها كانت.. كانت تصنع أعمالًا من قبل لمن تكرههم.

نظر محمد إلى أمينة فقالت بعينين متسعتين:

- لا أتذكر! لا أتذكر أي شيء! هل.. هل تسللت إلى شقة جمال ودسست العمل في فراشه؟ أنا فعلت هذا؟

نزل علي سريعًا ودخل الشقة، ثم عاد بالعمل الذي وجده المنجد في الحشية. قرّب الصورة من أسامة -أكثرهم خبرة في المجال- وسأله:

- ما المكتوب على هذه الصورة؟ هل تعرف الفارق بين سحر المحبة والتفريق؟

نظر أسامة إلى الصورة، وعلى الفور عرف أن هذا ليس عملًا بل..

- هذا لا شيء. حروف متناثرة بلا معنى. لو أن أمينة كانت تصنع سحرًا في الماضي، فلا بد أنها فقدت القدرة على تذكر كيف تصنع هذه الأشياء الآن.

ساد الصمت لحظات، ثم قال جمال بهدوء:

- عودوا إلى شققكم، والصباح رباح.

هتفت أمينة:

- والشبح؟

قال أسامة:

- أعتقد أنه رحل.. الأمور الآن صارت واضحة.. لا يبقى إلا سؤال واحد.. من السارق؟ يبدو أنه يعاني داء السرقة، مرض نفسي، لا خللًا أخلاقيًا. هو الآن يعرف نفسه، وسأتفهم لو أتاني واعترف في أي وقت فأرسله إلى مختص يساعده، أو ليساعد نفسه دون فضائح.

عاد كل إلى شقته، وظل أسامة واقفًا في المدخل. سأله محمد:

- ألن تصعد معي يا أخي؟

طلب منه أسامة أن ينتظر معه قليلًا ريثما يخلو المكان، ثم أومأ لرفاعة إيمائه ذهب على إثرها إلى ما خلف الكرداشة وأخرج هاتفه المحمول. تساءل محمد بنظراته عما يحدث، فقال له أسامة وهو

يصحبه إلى الحقل خلف المنزل مع رفاعة:

- اتفقت مع رفاعة على أن يصور المدخل بهاتفه المحمول، ثم ندعي أننا رأينا شبحًا كي نجمع الكل هنا ونواجههم. كنت أريد من يعزز ادعائي.

همس محمد في دهشة:

- كيف لا يوجد شبح؟! والفيديو الذي صورته له؟

- فيديو قديم من الفيديوهات التي صورتها سهير. لو لاحظت لرأيت أن الحائط خلف الشبح لا مثيل له في مسكني.

شغّل رفاعة الفيديو دون صوت، وبينما يتابعونه سألهما:

- كيف خرجت السيد أمينة من شقتها ودخلت شقة الحاج جمال؟!

أجاب محمد:

- هي لا تتذكر كما هو واضح. هل أخرجتها سناء؟ لقد اعترفت بما هو أسوأ من امتلاك نسخة مفاتيح. لنسألها.

حكى أسامة كل ما استنتج لمحمد الذي قال في حزن:

- شككت فيّ يا أسامة؟! وما ذنبي في كل هذا؟

- اعذرني يا محمد، أنت الوحيد الذي لم يرَ أشباحًا ولم يُسرَق. سامحني.

أوقف رفاعة الفيديو وقال وهو يشير إلى الدرج:

- علاء صعد ليحضر السيدة سناء، ثم نزل الولدان وزعما أنها اختفت، فصعدتم، ثم نزلتم ولم ينزل علاء.. لكني متأكد أنه دخل الشقة مع أخيه ووالديه منذ قليل بعد انتهاء المواجهة، ولم ينزل على الدرج.. انظر..

راجعوا الفيديو أكثر من مرة. علاء صعد ولم ينزل، لكنه واضح خلف الأجولة وهو يدخل إلى شقة أبيه. نظر الثلاثة إلى بعضهم في حيرة. انطلق أسامة إلى شقة جمال يطرق بابها، ففتح له الأخير. رفع أمامه الهاتف وطرح عليه السؤال المحير

- هذه ليست المرة الأولى يا جمال التي يختفي فيها الولد بهذا الشكل. ماذا تخفون أيضًا؟

- ماذا نخفي يا أسامة؟ هل نخفي أنه شبح مثلًا؟ يكفي ما حدث.

ثم أغلق الباب في وجهه.

***

حول طاولة الشاي عند أسامة، اجتمع الرجال الثلاثة. قال أسامة:

- هل رأيتما وجه جمال عندما سألته إن كان هو أم علاء من تسلل إلى شقتي؟ لماذا تسللا؟ ولماذا يتصرف علاء بهذه الغرابة؟

قال محمد:

- الولد تحت ضغط نفسي هائل. لو أنه هو من تسلل إلى شقتك، إذًا فأمه بريئة. ربما تعرف أن ابنها مريض بداء السرقة وتغطي

عليه، بدليل أنها أعادت ما سرق من الأسطى رفاعة. هل يعيد المريض بداء السرقة ما سرق؟

أجاب أسامة:

- غالبًا لا، ما لم يجد أنه سيقع في مشكلة. لو أن علاء السارق، فهو من سرق قلم أبيه وصور سناء من شقتها.

ثم تذكّر أسامة ما قاله زين عن رؤيته شبحًا أمام خزانته. هل كان علاء أم جمال؟ هل تعرف سناء أنه كان أحدهما أم لا؟ لو أن منار السارقة ما أعطت الوسادة لرفاعة.

أردف أسامة:

- علاء يسرق مفاتيح أبيه ويسرق من الشقق ما يروق له. ربما كان يسرق صورة سناء عندما رآه زين.

قال محمد:

- وسناء لا تريد أن يفحص ابنيها أحد كي لا يعرف بأمر ما تخفيه. أراهن على أنها تعرف أن زين لا ينام عميقًا كأخته، لذا لم تسعَ لإنكار شائعة تحولهما لقطين.

- ولهذا حاولت الابتعاد عن المنزل لأول مرة بعد المشاكل التي أثارها انكشاف العمل.

- ربما معها مفاتيح منزل أمينة، فهي تحبها وتشفق عليها.

لو أن جمال كان يزورها سرًا فربما صنعت من مفاتيحه نسخة.

قال رفاعة أخيرًا:

- حُلّ اللغز.. علاء لا مؤاخذة في كلامي مارق خفيف الحركة، ربما يساعده هذا على الاختفاء والظهور دون أن ندري. أستميحكما عذرًا، الوقت تأخر. سأرحل الآن وأعود باكرًا.. هذا ما لم يَلغُ الزفاف أو يتشاءم الحاج من وجودي.

قبل رحيل رفاعة، توقّف لحظة ينصت.

- صوت خطوات.. أحدهم فوق السطح.

- لعله علي..

صعد الرجال بكشافات هواتفهم المحمولة، فلم يجدوا أحدًا في الشقة. مرة أخرى ألصق رفاعة أذنه إلى الحائط وقال:

- صوت الخطوات.. الصوت يبتعد..

ثم نظر إلى الحائط مُدققًا، وضربه بكفه عِدة ضربات ثم قال:

- هذا ليس حائطًا مبنيًا بالطوب.

أزاحه محمد وطرق الحائط بنفسه. الحائط خشبي مغطى بنقوش ورسومات قبيحة تخفي اختلافه. دفع محمد الحائط، فصدر صوت الجر والاحتكاك، ومن خلفه بدا لهم سلم خشبي بدائي وتجويف يسع رجلًا بالكاد.

هتف محمد بصوت متهدّج:

- لهذا لا يُسرق مني شيء ولا أرى أشباحًا! هذا السلم الخفي يربط الجهة اليسرى من المبنى!

على ضوء كشاف الهاتف المحمول، نزل محمد ثم أسامة ثم رفاعة الذي همس:

- صوت الخطوات توقّف. المتسلل يعرف أننا خلفه.

بعد مجموعة الدرجات الأولى، لاحظ أسامة خطّ ضوءٍ رفيعًا قادمًا من شقته. هذا مدخل الدّرج إليها. من تسلل لسرقته والعبث في كتبه وطعامه تسلل من هنا.

قال محمد بصوت منخفض وهو ينزل أسرع:

- هكذا خرجت أمينة من شقتها المغلقة، ودخلت شقة جمال!

وهتف أسامة في حماس:

- لو أن جمال كان يزور سناء سرًا من هذا السلم، فلا بد أنها سمعت أمينة تنزل من عندها إلى شقة جمال، فلحقتها من الخارج سريعًا، هذا سر وجودها لحظة صرخت منار! وهذا تفسير اختفائها وقت ادعائي أن شبحًا نزل إلى شقة أمينة. لقد صعدت لتنجدها في حال تأخر جمال عن فتح الباب بمفتاحه! الجميع يعرف بشأن هذا السر إلا أنت يا محمد، وربما منار.

همس رفاعة:

- لا تؤاخذوني.. هذه المرأة تعرف أين يخبئ القرد أولاده. لقد قررت أن تهين السيدة أمينة وتفضحها وتلصق بها تهمة السحر. هذه أفعال بيت الزواحف يا دكتور. اسألني أنا.

ثم صرخ محمد، وسقط إلى الخلف، فهوى الهاتف إلى أسفل الدرج. شعر أسامة بمن يدفعه ليمر صاعدًا من جواره، لكن رفاعة أمسك بالمتسلل بذراعيه القويين حتى سمع أسامة صوت علاء يتألم، فقال:

- اهدأ يا علاء. كل شيء انكشف.. اهدأ..

***

رفض علاء الجلوس على الأرجوحة فوق السطح كما عرض عليه محمد، وظل واقفًا منكس الرأس.

- اكتشفت الدّرج عندما رأيت أبي يومًا يخرج منه منذ عامين. المدخل في شقتنا خلف الخزانة في الحمام. انتابني الفضول، فتسللت ليلًا والجميع نيام، لأكتشف أن للسلم أبوابًا تؤدي إلى شقق العمارة كلها في البداية كنت أمكث خلف الحوائط، أستمع إلى ما يجري، أهرب في ظلامها من قسوة أبي والكابوس الذي نعيشه شعرت بلذة خفية وأنا أمارس ما يمارسه أبي من فعل شائن هذا سِري ثم عرفت متى ينام ومتى يخرج كل فرد، فتشجّعت ودخلت في البداية كنت أجوّل حول الباب فقط ثم أعود، بعدها تشجّعت أكثر شعرت بنشوة وأنا أخرّب تلفاز هذا، وأفتش في أسرار ذاك لا

يلحظ أحد وجودي من عدمه، لذا عشت خلف الحوائط أغلب يومي آكل من طعام الشقق التي أجوّل فيها، آخذ ما يروق لي من ممتلكات حتى لو لم تكن ذات قيمة. وأجل، أنا من أخذت صورة سناء.. لم أكن أعرف أنها فائقة الجمال إلى هذا الحد. وأنا من سرق مالك وطعامك وغيّر ترتيب كتبك يا عمي. بل كنت أعيش حياة كاملة في شقتك بينما أنت في الجامعة.

قال أسامة:

- ما تفعله معروف في الغرب باسم Phrogging، وهو تنويع على كلمة frog أو ضفدع بالإنجليزية، إذ يعيش المتسلل في بيوت الآخرين دون علمهم، ويختبئ داخل الحوائط المزدوجة المعروفة في المنازل هناك. أنت ضفدع، تقفز من منزل إلى آخر في لمح البصر..

- لست وحدي الضفدع يا عمي.. في يوم قابلت أبي يخرج من شقة سناء بينما أنا أصعد. تواجهنا لحظات طويلة دون كلمة واحدة. ربما ما أفعله يليق بمراهق، لا رجل جاوز الستين بمراحل. نزل من جواري، فنزلت خلفه. أشار لي أن أتبعه إلى غرفة نومه ففعلت. لأول مرة لم أكن خائفًا من أبي.

يرى محمد ابتسامة مختلة على شفتي علاء، ابتسامة طعنته. أردف الشاب:

- قال لي، هذا سرنا. لن أخبر أحدًا، على شرط.. أن تخبرني بكل ما

تسمع في الشقق. كل الأسرار.. وافقت، وصار بما أفعل مسموحًا لدى أبي. أنقل له ما يسره الآخرون، وقد نقلت له يا دكتور بعض مكالماتك. يوم اختفت عمتي، لم نذهب للبحث عنها في الحقل، بل في الشقق التي تطل على الدَرج، فربما تكون قد خرجت من المدخل عندها ودخلت أي شقة، وفي هذا خطر لانكشاف السر.

قال محمد: - هل تعرف أمينة بهذا السر؟

أجاب علام:

- أخبرني أبي أن جدي هو من صنع هذا الدَرج يوم بنى شقة عمي عزت. كان مولعًا بالمراقبة ومعرفة الأسرار كي يحكم قبضته على أبنائه، وأكمل أبي ما فعل أبوه، فمدَّ الدَرج حتى شقة علي. يمكنني أن أصعد الدرج أمام الجميع، وأنزل من الدَرج السري فأخرج في شقتنا.. أو في حجرة المخزن خلف المنزل.. تلك المُطِلة على الحقل. عمتي أمينة عرفت الدَرج السري يوم حَبَسها جدي في حجرة المخزن عقابًا لها على شيء لا يتذكره أبي. من خوفها من الظلام انهارت وراحت تضرب رأسها في الجدران حتى وجدت المدخل بالمصادفة وخرجت من الحمام. يقول أبي أنها ضُربت في هذا اليوم حتى نسيت تمامًا ما رأته. ويقول أيضًا أنها نسيت الأمر بالفعل، لكن يبدو أنها في نوبات خرفها تذكرت، واستخدمت المدخل السري في شقتها. لا يستطيع أحد أن يعرف كيف تذكرت ولا حتى هي.

- هل تعرف أمك بشأن الدَرج؟

- لا. لكن أمي اكتشفت أنني أجمع أغراضًا وأخبئها عندي، ورأتني وأنا آخذ المدق من أدوات المنجد، فلطمت خديها قليلًا وأعادته.
هي لا تعرف من أين أحصل على ما أسرق، ولا أين أخبئ ما لا تعرف عنه شيئًا.

ثم التفت إلى رفاعة وقال باسمًا:

- هل وجدت الصورة والقلم بعد؟ لو وجدتهما، أعِدهما لي.

سأل محمد أسامة: - ماذا سنفعل؟

- لا شيء. كل واحد فيهم يعرف ما يفعل جيدًا. وأنت يا بني، لا بد أن تُعالَج. أعرف أن الأمر صعب، لكني سأساعدك وأحفظ سرك.

ابتسم علاء بركن فمه مستهزئًا، فأضاف أسامة:

- المهم أن نرسل أمينة إلى طبيب جيد، وربما نرسل معها زينة لنطمئن أكثر.

هزّ محمد رأسه وقال:

- دع هذه المهمة لي. عمومًا سأرحل من هذا المكان المسموم.
سأرحل وآخذ أختي معي، ورزقنا على الله.

قام محمد غاضبًا ونزل الدرج. ربّت أسامة على كتف علاء ثم أخذ رفاعة ونزلا.

***

الفصل الثالث

يستيقظ أسامة قُبيل الفجر على صوت جزّ ثم خطوات. يهوي قلبه بين قدميه..

- جمال؟

لا شيء، لكن صوت الخطوات يعلو..

- علاء؟

يقوم أسامة وينتعل خفيه. يضغط زر النور لكن لا يُضاء المصباح.

صوت الخطوات يقترب أكثر..

- أمينة؟

ينفتح باب حجرته، ليرى أمينة مغمضة العينين مهوّشة الشعر تقترب منه. ضوء القمر القادم من النافذة يلقي ظلها على الحائط خلفها. ظلًا طويلًا عريضًا ذو عمامة.

يتراجع أسامة إلى الخلف بينما تقول له أمينة بصوت خشن مبحوح:

- ارحل يا أسامة، ارحل من بيتي ومن الدنيا وكفاكَ خرابًا. أنت وأبوك وأخوك مطرودون مع عائلة الصاوي. فارحل. ارحل ولا تدمر ما بنيت طوال أعوام طويلة!

ثم تندلع النيران من الظل خلف أمينة. يصرخ أسامة باسمها،

فتفتح عيناها وتلتف إلى ما ورائها ثم تصرخ بدورها.

- أبي!!

يلقي أسامة سترة صوفية على الظل، ثم يقفز من فوق الفراش ويجذب أمينة ثم ينطلق بها إلى باب الشقة. أين المفتاح؟! الباب لا ينفتح..

- النار للخائنة..

- أبي لا! سامحني! لقد نسيت!

يدور أسامة حول نفسه وهو بعد ممسك بكفها الباردة. يهرع نحو الحائط السري فيحاول جزّه. النيران تنتشر في الشقة بطريقة غير واقعية بالمرة. لا يوجد فيها ما يحترق بهذه السرعة.

 يضرب أسامة الخشب بكتفه مرات حتى ينهار، ثم يسحب أمينة وراءه في الظلام ويصعدان.. درجتان فقط، ثم يلاحظ اللهب ينزل من أعلى. يستدير وينزل الدرج. اللهب يتصاعد من الدرجات الخشبية ويحرق ساقيه. أمينة تصرخ خوفًا من أبيها ومن النار. يحمل جسدها الواهن وينزل وهو يصرخ وينادي. يضرب مدخل جمال وهو ينظر إلى النار تطارده. ألن يسمعهم أحد؟!

ثم يتذكر ما قاله علاء عن المخرج الآخر في حجرة الخزين، فيعدو بأقصى ما يستطيع نحوه. المخزن ذو نوافذ بلا مصاريع. يلقي أمينة عبر أحدها، ثم يبحث عن شيء يقف عليه ليقفز وراها.

يسمع صوت جمال يصرخ من بعيد:

- حريق حريق!

- جمال! أنا في المخزن!

- أنا آتٍ!

لحظات طويلة مرت حتى يظهر جمال ملفوف في بطانية سميكة، ثم يفردها ويدعوه إلى الدخول معه فيها.

- مفاتيح المخزن ليست معي، هيا..

يندس أسامة مع ابن عمه، ويعودان عبر النار إلى الشقة، ثم يخرجان إلى المدخل الذي اجتمع فيه أبناء جمال وزوجته، وسناء وابنها المستيقظ، وابنتها النائمة على كتفها.

يهتف أسامة:

- أين محمد؟

من مدخل الحقل، تدخل أمينة مترنحة وهي تقول لجمال:

- قرين أبي لم يرحل يا جمال.. لم يرحل.

ثم يسمعوا صوت صراخ محمد من أعلى..

***

انهار جزء كبير من جانب البيت إذ تأخرت سيارة الإطفاء كثيرًا،

وساعد الدرج وحوائطه الخشبية في اكتمال الكارثة.

احترقت شقة محمد الصاوي أولًا وهو نائم، ولم يستيقظ إلا بعدما حاصرته النيران، فلم يجد بُدًا سوا القفز من النافذة على سقف معرض التروسيكلات المصنوع من الصفيح. قلل سقف المعرض المسافة التي سقطها، وخفف الفراغ تحته من وقع الارتطام، لكنه نُقِل بعدها إلى المستشفى مصابًا بكسور في الساقين وشرخ في فقرة من العمود الفقري.

لكنه بخير.

ما قاله عندما أفاق أن أباه –شبحه تحديدًا- أضرم النار في الشقة لأنه قرر الرحيل وإبعاد أخته عن المنزل، لكنه بعد مُصمم على هذه الخطوة، وربما أكثر منذ ذي قبل.

في حجرة أخرى من المستشفى نفسه الذي يُعالج فيه محمد ضُمِّدت حروق قدمي أمامة، وجلس الحاج مدحت إلى جواره بعدما اتصل به طلبًا للمال.

- أمينة كانت تصنع الأعمال حقًا يا حاج مدحت. عاشت شبابها في التفريق بين الناس بالسحر وحضّرت من الشياطين مَن يساعدها، لكن حالة عقلها أنستها السحر فلم تصرف هذا الشيطان، ولم ينصرف عن البيت. كان يتمثل لها على أنه قرين أبيها، وسكن البيت بشرّه، يبث في عقول ساكنيه البغضاء.

قال الحاج مدحت:

- سبحان الله. أنا أيضًا قلت لنفسي كيف لعائلة الصاوي أن تكون بهذا الخلل. قال لي الحاج جمال أنهم وجدوا عشرات الأعمال مدفونة أسفل الدّرج السري بعد سقوطه. هو لم يكن يصدق هلاوس أخته منذ صغرها عن قرين أبيها الذي لاقته في ظلام المخزن، ووعدها بأن يُخرجها ويساعدها لو عاهدته بدمها. أعتقد أن هذا هو بداية تعرفها على شيطان رجيم دفعها لطريق السحر.

- أعوذ بالله.. جدي كان قاسيًا مختلًا، وأورث جمال وأمينة مشاكل نفسية عظيمة. حتى أحفاده تضرروا. قالت لي سهير مرة أن الشياطين لا تستطيع بث سمومها إلا فيمن كان في نفسه فراغًا لا يملأه إلا الغضب والحقد والشحناء. لطَف الله بهم جميعًا. أشعر بالأسف على ما حدث لأمينة..

- على ذكِر سهير.. ألم يحن الوقت؟ أنا لم أخبرها بشيء حتى الآن.

- لا تخبرها.. والوقت قد حان بالتأكيد، لكني لن أعود لها في هذا الوضع كي لا تنساق وراء شفقتها عليّ وتوافق على العودة دون أن تسامحني حقًا. لن أعيش ضفدعًا يقفز من ظلام إلى آخر يا عمي. لن أسمح بالاكتئاب أن يحولني إلى شبح مكروه في حياة حبيبتي وابني.

ابتسم الحاج مدحت حتى ظهر سِناه الكبيران ولمعت عيناه الحنونتان.

خرج الرجل الطيب من المستشفى وركب سيارته، ثم اتصل بي

وبعد التحية قال لي:

- هلا ساعدت الحاجة أمينة في التخلص من شيطانها هذا؟ يبدو أن الخرف يأكل عقلها وكينونتها تدريجيا، وستكون قسوة مفرطة لو تخيلنا عنها، أليس كذلك؟

- لا تقلق يا حاج. سأتولى الأمر.

- سأرسل لك العنوان.

- أعرفه.. المهم، كنت سأتصل بك. عندي خبر سيئ ولا أجرؤ على الاتصال بأسامة ولا سهير لإبلاغهما.

أوقف مدحت السيارة إلى جانب الطريق متلقيًا سبابًا ممن خلفه من سائقين وقال:

- ماذا حدث؟!

- شريف.. شريف يحتاجنا جميعًا.

النهاية.